الدكتور ابراهيم أحمد العدوى

السفارات الإسلامية إلى أوربا
فى العصور الوسطى

اقرأ ١٧٩
دار المعارف بمصر

اقرأ ١٧٩ — نوفمبر سنة ١٩٥٧

ملتزم الطبع والنشر دار المعارف بمصر

١

الدبلوماسية فى الإسلام

حقوق الجوار :

اتسمت العصور الوسطى بأنها عصور الدين ، وذلك لقيام دينين سماويين جنباً إلى جنب وهما المسيحية والإسلام ، وانتشارهما فى بقاع شاسعة من أرجاء العالم المعروف إذ ذاك . فاشتملت رقعة الإسلام على بلاد الدولة الإسلامية ، التى امتدت من أطراف الصين شرقا إلى المحيط الأطلسى غربا . وذلك فضلا عن الجماعات الإسلامية الكبرى فى الشرق الأقصى وجنوب الروسيا وجوف أفريقيا وسواحلها الشرقية .

وجاور هذه الدولة الإسلامية ، إمبراطورية الروم المسيحية (الإمبراطورية البيزنطية) التى اشتملت رقعتها على آسيا الصغرى وبلاد البلقان وإيطاليا ، وذلك فضلا عن الجماعات المسيحية الكبرى فى بلاد الغال (أرض فرنسا) والجزر البريطانية وشمال أوربا وبلاد الروسيا .

ولم تكن العلاقات بين الدولتين الإسلامية والبيزنطية (الروم) علاقة عداء مرير ، بحيث استهدفت كل منهما القضاء على الأخرى ، وإنما نظمت كل من هاتين القوتين علاقتيهما على أسس دينية ، بحيث تعيشان فى مودة وسلام . وكشفت الرسائل التى تبادلها كبار رجال الدولتين عن تلك الحقيقة السالفة ، وحرص كل منهما على التمسك بأهداب حسن الجوار .

ومن أمثلة أساليب المودة التى سادت العلاقات الإسلامية البيزنطية ، الرسالة التى بعث بها بطريق القسطنطينية ، نيقولا ميستيكوس ، إلى حاكم جزيرة كريت المسلم ، أيام تبعيتها للدولة الإسلامية فى منتصف القرن العاشر الميلادى ؛ إذ جاء فى تلك الرسالة ما يلى :

« إلى الأمجد الأغر الأشرف ، أمير جزيرة كريت إن أعظم قوتى العالم أجمع ، قوة العرب وقوة الروم ، تعلوان : وتتألقان كالشمس والقمر فى السماء ، وبهذا وحده يجب أن نعيش إخوة ، على الرغم من اختلافنا فى الطبائع والعادات والدين » .

وفى ظل تلك الروح السمحة الأخوية جرت العلاقات الخارجية وأساليبها ، أو ما يسمى بالدبلوماسية ، بين الدولتين

الإسلامية والبيزنطية . فأوفدت الدولة الإسلامية سفراءها منذ أيامها الأولى إلى بلاط الروم بالقسطنطينية ، كما بعث أباطرة الروم بسفرائهم إلى عواصم الدولة الإسلامية ردًّا على التمثيل الدبلوماسى الإسلامى .

وينسب إلى الرسول الكريم ، وهو مؤسس الدولة الإسلامية ، إرسال أول سفارة إسلامية إلى هرقل ، إمبراطور الروم . فبعث وفداً من الصحابة على رأسهم دحية الكلبى ، ومعهم كتاب منه يدعو فيه هرقل إلى الإسلام . وصيغت فقرات الكتاب فى أسلوب يحمل كل معانى حسن الجوار ، ويكشف عن سمو الدبلوماسية الإسلامية فى صدر حياتها ؛ فجاء فى هذا الكتاب :

« من محمد رسول الله ، إلى هرقل عظيم الروم ، سلام على من اتبع الهدى .

أما بعد :

فإنى أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم ؛ وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين » .

وتبادل المسلمون والروم السفراء والمكاتبات منذ سفارة دحية

الكلبى ، إذ بعث قيصر الروم سفارة إلى النبى ردًّا على دعوته إلى الإسلام . ثم تابع أبو بكر ، بعد أن ولى خلافة الدولة الإسلامية ، سياسة النبى ، فأوفد سفارة من ثلاثة أشخاص إلى قيصر الروم . وزادت العلاقات الدبلوماسية الإسلامية مع الروم نشاطا بخلافة عمر بن الخطاب ، وذلك بسبب اتساع الدولة الإسلامية فى الشام ، واقتراب حدودها من آسيا الصغرى ، موطن قوة الروم ومهد أباطرتهم .

غير أن التمثيل السياسى بين الدولة الإسلامية ودولة الروم أخذ طابعا منظما منذ قيام الدولة الأموية ، واتخاذها دمشق عاصمة لخلافتها . فكان قرب دمشق من القسطنطينية يشجع تبادل السفارات بينهما ، وذلك فضلا عن أن أطراف الدولة الإسلامية قد استقرت فى ذلك الوقت عند سلسلتى جبال طوروس ، التى غدت تكون حدا فاصلا بين المسلمين والروم ، يحترمه كل منهما ويعملان معاً على تدعيم السلام بالقرب منه .

التوازن الدولى :

وبنهاية العصر الأموى حدث تطور فى التوازن الدولى حمل الدولة الإسلامية على توسيع دائرة نشاطها الدبلوماسى . وكان

أول مظاهر هذا التطور فى التوازن الدولى هو انفصال الأندلس عن الدولة الإسلامية ، واستقلالها بشئونها منذ قيام العباسيين على عرش الخلافة ، واتخاذهم بغداد عاصمة لهم . ذلك أن أحد أبناء البيت الأموى الذى تداعى أمام قوة العباسيين ، ويدعى عبد الرحمن الداخل استطاع سنة ٧٥١ م أن يفر إلى الأندلس . وأسس لنفسه إمارة هناك عرفت باسم الإمارة الأموية .

ونافست تلك الإمارة الأموية بالأندلس سلطان العباسيين فى بغداد ، وظلت تمثل خطرا يتهدد ممتلكات العباسيين فى شمال أفريقيا . ثم إن أمراء بنى أمية بالأندلس عمدوا إلى منافسة العباسيين أيضاً فى ميدان الحضارة ، فجعلوا من عاصمتهم قرطبة مركزاً ثقافياً زاهراً ، يحج إليه العلماء والطلاب ، وزينوا تلك العاصمة بالمساجد الفاخرة والعمائر الشاهقة حتى تنتزع قرطبة عظمة بغداد ، أو تقف معها على قدم المساواة .

وحوالى تلك الفترة التى تأسست فيها الإمارة الأموية بالأندلس ، قامت قوة أخرى جديدة تنافس إمبراطورية الروم زعامة العالم المسيحى . وكانت تلك القوة المسيحية الجديدة هى دولة الفرنجة ، التى شيدت سلطانها فى بلاد الغال (أرض

فرنسا) . واشتهر ملوك هذه الدولة المسيحية الجديدة بالقوة والبأس ، وبالحماسة فى نشر المسيحية بين أهالى شمال أوربا ، الذين لم تصلهم المسيحية فى ذلك الوقت .

وسرعان ما اتسع نفوذ الفرنجة وعلا ذكرهم بسبب ما نالوه من قوة ، ولنشاطهم فى نشر المسيحية . وبلغ الفرنجة أوج مجدهم سنة ٨٠٠ م حين صار شرلمان إمبراطورا عليهم ، ومنافسا خطيراً لأباطرة الروم فى ميدان الزعامة على العالم المسيحى .

وتجلت مظاهر زعامة الفرنجة للمسيحية حين اتصل البابا فى روما بالإمبراطور شرلمان ليحميه من الأعداء المحيطين به فى إيطاليا . وسخر شرلمان سيفه فى سبيل إعزاز سلطان البابوية ، وبسط سلطانها الروحى ليكسب بذلك الذكر الطيب فى العالم المسيحى . فبعث بجيوشه مراراً وتكراراً إلى إيطاليا استجابة لنداءات البابوية ، حتى صار التحالف وطيداً بين الفرنجة ، أعظم قوة فى غرب أوربا ، وبين البابوية ، صاحبة السلطان الروحى فى العالم المسيحى .

وأدى هذا التحالف الجديد إلى تدهور مركز إمبراطورية الروم فى العالم المسيحى ، حيث فقدت زعامتها على مسيحيى غرب أوربا . وفضلا عن ذلك فإن الفرنجة تطلعوا إلى شرق

أوربا لبسط حمايتهم على المسيحيين هناك من دون الروم ، متلمسين من أجل ذلك شتى الوسائل .

وبذلك لم تعد الدولة الإسلامية ودولة الروم هما أعظم قوتى العالم ، وإنما قامت إلى جوارهما قوتان أخريان عظيمتان ، وصار العالم موزعاً بين أربع قوى متنافسة هى : الخلافة العباسية وعاصمتها بغداد ، ومنافستها الإمارة الأموية بالأندلس وعاصمتها قرطبة ، ودولة الروم وعاصمتها القسطنطينية ، ومنافستها دولة الفرنجة وعاصمتها إكس لاشابل .

وتبع هذا الوضع السياسى الجديد ازدياد فى النشاط الدبلوماسى الإسلامى . ذلك أن الخلافة العباسية فى بغداد لم تعد ترسل سفاراتها إلى القسطنطينية فحسب ، وإنما بدأت تبعث سفاراتها كذلك إلى بلاط الفرنجة ، لتجعل من تلك القوة الجديدة سنداً لها فى منافستها للأمويين بالأندلس . وشجع الوضع الجغرافى للفرنجة على تقرب العباسيين لهم ، لأن بلاد الغال (فرنسا) التى يشغلونها تجاور مباشرة حدود إمارة الأمويين بالأندلس عند جبال البرانس . وفى نفس الوقت لم يعد الروم يرسلون سفاراتهم إلى بغداد فحسب ، وإنما أوفدوا سفراءهم إلى قرطبة ليجعلوا من أمرائها عضدا لهم فى تهديد الفرنجة .

وبدأت مظاهر النشاط الدبلوماسى الإسلامى الجديد حين تولى أبو جعفر المنصور ، وهو ثانى الخلفاء العباسيين عرش الخلافة فى بغداد . إذ أرسل هذا الخليفة إلى پپن (Pepin) سيد بلاط الفرنجة سفارة لعقد معاهدة صداقة وتحالف بينهما ، لإرهاب الإمارة الأموية بالأندلس ، ومنعها عن القيام بأى اعتداء على الممتلكات العباسية المجاورة لها فى شمال إفريقيا .

وتابع الخليفة المهدى بن المنصور ، وكذلك هارون الرشيد ابن المهدى سياسة إيفاد السفارات إلى بلاط الفرنجة لتدعيم التحالف بين العباسيين والفرنجة ، حتى تظل إمارة الأمويين بالأندلس فى خوف دائم من الخطر الفرنجى الجاثم على أطراف بلادها . وبلغ النشاط الدبلوماسى العباسى مع الفرنجة ذروته ، حين بعث هارون الرشيد بسفارته المشهورة إلى الإمبراطور شرلمان .

وفى نفس الوقت الذى سعى فيه العباسيون إلى التقرب من دولة الفرنجة المسيحية ، أخذ أباطرة الروم بدورهم يتصلون بأمراء بنى أمية المسلمين بالأندلس ، ليجعلوا منهم حليفا ضد خطر الفرنجة المتزايد . وترتب على تطور الأوضاع السياسية بذلك ظهور غرب أوربا فى ميدان النشاط الدبلوماسى

الإسلامى ، وغدت القوات الأوربية هناك محط أنظار السفارات الإسلامية .

وهكذا أدى قيام تلك القوى الأربعة المتنافسة وتعدد مطالبها واختلاف أهوائها إلى ظهور نشاط دبلوماسى حافل فى العصور الوسطى ، كان للدولة الإسلامية فيه نصيب وافر . فخرجت السفارات الإسلامية من بغداد إلى القسطنطنية وإلى إكس لا شابل النائية ، كما خرجت السفارات من قرطبة إلى بلاط الفرنجة والروم ، وفيما بعد إلى الجزر البريطانية ، التى بدأت تظهر على مسرح السياسة الدولية .

أغراض الدبلوماسية :

واستهدفت السفارات الإسلامية سواء ما خرج منها من بغداد، أم قرطبة ، أم من القاهرة، استهدفت نفس الأغراض التى تضطلع بها الدبلوماسية فى الوقت الحاضر . فالمعروف أن التمثيل السياسى بين الدول يؤدى مهام عدة منها توثيق الروابط السياسية والعلمية والاجتماعية ، وكذلك إنهاء حالات التوتر بين الشعوب . وسارت السفارات الإسلامية على هذا النهج ، حيث خرجت إلى عواصم أوربا لإنهاء حالة حرب ، أو عقد محالفة

تجارية أو ثقافية أو للتهنئة بتولى حاكم جديد العرش أو بزواجه. وقامت السفارات الإسلامية أيضاً بالتجسس فى بعض الأحيان لمعرفة استعداد الأعداء الحربى والمادى ، على نحو ما تنهض به بعض السفارات فى الوقت الحاضر .

وتحتل السفارات الخاصة بإنهاء حالة الحرب أو فض المنازعات المكانة الأولى فى العلاقات الدبلوماسية بين الدولة الإسلامية وقوى أوربا . وجرت التقاليد الدبلوماسية على أن يتبادل الطرفان أولا الكتب أو الرسائل بين قادة الدول التى يهمها الأمر حتى يتفق الطرفان على أسس إنهاء المنازعات . وكانت تلك الكتب أو الرسائل تصاغ فى أساليب ودية تبغى إزالة ما فى النفوس من إحن وأحقاد . ومن أمثلة تلك الكتب الرسالة التى بعث بها إمبراطور الروم ثيوفيل (٨٢٩ م) إلى الخليفة العباسى المأمون بشأن تبادل الأسرى وإعادة الحياة الاقتصادية بين المسلمين والروم ، فجاء فى تلك الرسالة ما يلى :

« . . . وقد كتبت إليك داعياً إلى المسالمة ، راغباً فى فضيلة المهادنة ، لتضع أوزار الحرب عنا ، ويكون كل واحد لكل واحد وليا وحزبا ، مع اتصال المرافق والفسيح فى المتاجر وفك المستأسر وأمن الطرق » .

ورد الخليفة المأمون مجيبا طلب الإمبراطور البيزنطى ، حتى تعود الحياة بين الطرفين إلى مجراها الطبيعى . وكان يسمح لحاملى تلك الرسائل بزيارة معسكرات اعتقال الأسرى ليتأكدوا من حسن معاملتهم ، وليعرفوا عدد كل منهم .

وكان تولى الخلفاء والأباطرة العروش مناسبات طيبة لتبادل سفارات التهنئة وتحسين العلاقات بين البلدين . ومن ذلك أن الخليفة المهدى العباسى حين ولى الخلافة سنة ٧٧٥ م وفدت عليه رسل الروم بالتهنئة . واستدنى الخليفة رئيس السفارة وتحدث معه ، فقال السفير فى حديثه : « إنى لم أقدم على أمير المؤمنين لمال ولا غرض ، وإنما قدمت شوقا إليه وإلى النظر إلى وجهه » . وسر المهدى سرورًا عظيما بلباقة السفير البيزنطى ، وأمر بإكرامه .

وإلى جانب تلك الأغراض الظاهرة التى توخها الدبلوماسية الإسلامية فى سبيل تدعيم العلاقات الخارجية ، فإن التمثيل السياسى الإسلامى استهدف كذلك خدمة بعض الأغراض الخاصة ، أشبه بما تقوم به بعض الدول الحديثة فى الوقت الحاضر من محاولة لمعرفة قوة جيرانهم ومدى بأسهم . فكان السفراء المسلمون يزودون بتعليمات تقضى التأكد من صحة طلب الفريق الآخر للصلح أو للمهادنة أو لتبادل الأسرى ، إذ كثيرًا ما يعمد

الجانب المعادى للدولة الإسلامية إلى اتخاذ مطالبه السلمية وسيلة لتدعيم قوته الحربية واستئناف القتال .

واتخذت الدولة الإسلامية من جانبها كل الوسائل لمنع سفراء الدول الأخرى من التجسس على مرافقها ، وأصدرت تعليمات بذلك جاء فيها :

« ويجب أن يعلم أن الملوك بإرسالهم السفراء لا يقصدون تسليم رسالة أو نقل سفارة فقط ، بل إن هناك مئات الأغراض يبغونها ؛ فهم فى الحقيقة يريدون أن يعلموا حالة الطرق . . . ويعلموا إذا كانت معبدة تستطيع أن تمر بها ، والأمكنة التى توجد فيها المروج والأعشاب والحشائش للعلف والأمكنة التى لا يوجد فيها ذلك ، وأن يعلموا أيضا قوة الجيش ومؤونته فى العدد والعتاد وفى الدفاع والهجوم ، وأن يعرفوا كيف يعيش الأمير وماذا يأكل وبمن يجتمع ، وأن يدركوا تنظيمات بلاطه وعاداته ، وأخلاقه فى عدله وظلمه وسهره وتبذله ، وكرمه ورقته ، وهل هو متعلم أوجاهل ، وهل ازدهرت مملكته بالعمران أو ملأتها الخرائب والأطلال ، وهل رضى عنه جنده أو هم مغضبون مغيظون ، وهل أتباعه من الفقراء أو الأغنياء ، وهل يجدّ فى شئون مملكته أو يهملها ، وهل هو بخيل أوجواد ، ووزيره قدير أو عاجز .

وحاشيته من العلماء الأذكياء أو لا ؟ ثم هم يريدون أن يعلموا ماذا يحب وماذا يبغض ، وأن يعلموا ما شأنه إذا شرب الخمر ، وهل يميل إلى الحب وإلى النساء ، حتى إذا رغبوا فى مهاجمة مملكته يوما أو أرادوا نقض خططه . أو نقد عيوبه كانوا مطلعين مدركين يضعون المحاسن والمساوئ نصب أعينهم وينهجون بحسبها » .

وبذلك كانت الدولة الإسلامية على خبرة واسعة بشئون الدبلوماسية والأغراض التى قد يستهدفها جيرانها بإيفاد الرسل إليها . ثم إنها استخدمت نفس الأساليب الدبلوماسية مع جيرانها حتى تكون على خبرة بأحوالهم ، بعيدة عن التعرض للمفاجآت . وحفلت دور المحفوظات فى الدولة الإسلامية بتقارير مسهبة عن أراضى الدولة البيزنطية وطرقها ومعاقلها وغير ذلك من مرافقها الهامة . وساعدت تلك المعلومات على تبادل التجارة بينهما ، أو خدمة الأغراض الحربية .

ثم إن الجانب النفسى الخاص بمعرفة مزاج الحكام وطبائعهم لعب دوراً هاما فى تسهيل التبادل السياسى ، من حيث اختيار نوع السفير الذى يستطيع أن يتفاهم مع الحاكم الموفد إليه ، وكذلك فى انتقاء الهدايا المناسبة التى تدخل السرور على قلب

أولى الأمر . ثم إن معرفة كبار رجال البلاط كان عنصرًا هاما فى الدبلوماسية ، حيث يهيئ للسفير الاتصال بأوسعهم نفوذًا ، وأقدرهم على تحقيق الأغراض التى جاء من أجلها على رأس سفارته .

على أن هناك جانباً آخر طريفا استهدفته السفارات الإسلامية ألا وهو تدعيم الروابط الثقافية بين الدولة الإسلامية وجاراتها ، أشبه بالمهمة التى يقوم بها المستشارون الثقافيون فى سفارات الدول الحديثة اليوم . فكان الحلفاء والأباطرة يتبادلون السفارات الخاصة بدراسة الكتب النادرة التى توجد فى حيازة الطرفين أو فى مكتباتهما العامة ، وكذلك لاستدعاء كبار العلماء للمساهمة فى الحركة العلمية فى بلادهما ، أو لتسهيل مهمة بعض الطلاب لتلقى العلم فى الجامعات الكبرى فى عواصم المسلمين والبيزنطيين .

وكانت القسطنطينية على البسفور ، وبغداد فى أرض الرافدين ، وقرطبة فى سهل الأندلس الخصيب ، حدائق للمعرفة والعلم والفنون ، كل منها تسابق الأخرى فى ميدان البحوث والدراسات والابتكارات . ولذا كثرت السفارات بينها جميعاً لنقل ثمار المعارف والعلوم . ومن أمثلة ذلك أن الخليفة المأمون العباسى علم أن بالقسطنطينية أستاذًا مشهورًا فى الرياضيات

يدعى ليو ، ورغب فى استدعائه إلى بغداد ، فأرسل إلى الإمبراطور البيزنطى ، وهو إذ ذاك ثيوفيل ، سفارة خاصة تحمل رسالة شخصية تطلب منه أن يسمح للأستاذ ليو بالحضور إلى بغداد لفترة قصيرة ، وقال المأمون فى رسالته ، إنه يعتبر ذلك عملا وديا ، ويعرض على الدولة البيزنطية صلحًا دائمًا وألفى قطعة ذهبية فى مقابل ذلك .

غير أن الإمبراطور البيزنطى رفض هذا العرض السخى ، لأن بعض أبحاث العلماء كانت تعتبر من أسرار الدولة ، ولاسيما إذا كانت تتعلق بالناحية الحربية من الأسلحة والعتاد . وبذلك ضنت الدولة البيزنطية بهذا العالم على بغداد .

ولكن أشباه هذه الحالات لم تؤد إلى قطع العلاقات الثقافية نهائيا ، وإنما كان يسمح للعلماء المسلمين بزيارة مكتبات القسطنطينية ، واستخراج الكتب النادرة التى يحتاج إليها المسلمون فى دراساتهم المختلفة ، سواء فى ميدان الطب أم الكمياء أم الفلسفة ، وغيرها من المواد التى برع فيها البيزنطيون . ومن أمثلة تلك السفارات العلمية ما بعث به الخليفة المنصور العباسى إلى القسطنطينية ، حيث عاد العلماء المسلمون محملين بالكتب النادرة من بينها كتاب إقليدس .

ولم تقتصر السفارات الثقافية على طلب الكتب النادرة فحسب ، وإنما شملت أغراضها دراسة الأماكن التاريخية التى تتعلق بأحداث الدولة الإسلامية أو مما ورد ذكره فى القرآن الكريم . ومن أشباه هذه الاتصالات العلمية تلك السفارة التى أرسلها الخليفة العباسى الواثق (٨٤٢ -٨٤٧ م) إلى إفيسوس بآسيا الصغرى لتزور الكهف الذى كانت محفوظة فيه جثث الشبان السبعة الذين استشهدوا أيام الإمبراطور دقلديانوس ، والذين ورد ذكرهم فى سورة الكهف فى القرآن الكريم .

وقد منح الإمبراطور البيزنطى ميخائيل الثالث تلك السفارة تفويضا خاصا لزيارة ذلك الكهف ، كما بعث معها رجلا ليقوم بمهمة الإرشاد ويؤدى دور الدليل أثناء تجوال السفارة . ووصف السفير الإسلامى وهو محمد بن موسى المنجم مشاهداته عن أهل الكهف فى مدينة إفيسوس قائلا :

عندما وصلنا إلى المدينة شاهدنا جبلا يؤدى « إلى الموضع الذى فيه أصحاب الرقيم ، فبدأنا بصعود الجبل إلى ذروته ، فإذا بئر محفورة لها سعة وتبينا الماء فى قعرها ، ثم نزلنا إلى باب السرداب ، فمشينا مقدار ثلثمائة خطوة ، فصرنا إلى الموضع الذى أشرفنا عليه ، فإذا رواق فى الجبل . . . وفيه عدة أبيات ،

منها بيت مرتفع العتبة مقدار قامة ، عليه باب حجر منقور فيه الموتى ، ورجل موكل بحفظهم . . . وإذا هو يحيد عن أن نراهم أو نفتشهم ، ويزعم أنه لا يأمن أن يصيب من التمس ذلك آفة ، يريد التمويه ليدوم كسبه بهم . فقلت له دعنى أنظر إليهم وأنت برىء ، فصعدت بشمعة غليظة مع غلامى ، فنظرت إليهم فى مسوح تتفرك فى اليد ، وإذا أجسادهم مطلية بالصبر والمرّ والكافور ليحفظها ، وإذا جلودهم لاصقة بعظامهم ، غير أنى أمررت يدى على صدر أحدهم فوجدت خشونة شعره وقوة نباته» .

ولم تخل السفارات الثقافية من دعابات لطيفة ، أشبه بالمراسلات الأدبية . فيروى أن قيصر الروم كتب إلى معاوية ابن أبى سفيان رسالة مع سفير يقول فيها :

« أخبرنى عما لا قِبْلَة له ، وعمن لا أب له ، وعمن لا عشيرة له ، وعمن سار به قبره ؛ وعن ثلاثة أشياء لم تخلق فى رحم ، وعن شىء ونصف شىء ولا شىء ، وابعث إلىّ فى هذه القارورة ببزر كل شىء » .

فبعث معاوية بالكتاب والقارورة إلى ابن عباس أعظم الفقهاء المسلمين فى ذلك الوقت ليجيب عن الأسئلة . ورد ابن عباس قائلا :

« أما « لاقبلة له فالكعبة ، وأما من لا أب له فعيسى ، وأما من لا عشيرة له فآدم ، وأما من سار به قبره فيونس (النبى الذى ابتلعه الحوت) وأما ثلاثة أشياء لم تخلق فى رحم ، فكبش إبراهيم ، وناقة ثمود ، وحية موسى . وأما شىء ، فالرجل له عقل يعمل به ، وأما نصف شىء فالرجل ليس له عقل ويعمل برأى ذوى العقول ، وأما لا شىء ، فالذى ليس له عقل يعمل به ولا يستعين بعقل غيره » .

ثم ملأ ابن عباس القارورة ماء ، وقال : هذا بزر كل شىء . وبعث معاوية بتلك الإجابة إلى قيصر الروم ، الذى أعجب إعجابا شديدا بعلماء الدولة الإسلامية ، وسعة معارفهم.

وهكذا شملت السفارات الإسلامية سائر الأغراض التى تحققها الدبلوماسية فى العصور الحديثة ، ولكن كان لتلك السفارات الإسلامية طابعها الخاص من حيث الإعداد والتكوين .

٢
تشكيل السفارة

انتقاء السفراء :

لم تعرف الدولة الإسلامية وكذلك جيرانها من الأمم التمثيل السياسى بما نعرفه فى الوقت الحاضر من حيث إعداد دور سفارات دائمة فى شتى عواصم البلاد . وإنما كان السفراء المسلمون أشبه بما نعرفه اليوم بالسفراء فوق العادة ، الذين يوفدون فى مهام رسمية ، وينتهى تمثيلهم الدبلوماسى بانتهاء العمل الذى يوفدون من أجله ، مثل عقد معاهدة ، أو إجراء فداء أو حضور حفلة زفاف أو التهنئة بتولى العرش .

وفيما عدا الاختلاف السالف الذكر كان السفراء المسلمون يختارون وفق أدق القواعد التى لا تختلف عن النظم التى تتبعها الدول الحديثة اليوم عند تعيين سفرائها . فالسفير الإسلامى أشبه بالسفراء فى الوقت الحاضر ، كان يمثل الخليفة أو الملك ، أى رأس الدولة ، يتكلم باسمه ، ويفاوض عنه ويبرم العقود والمعاهدات نيابة عنه .

والمعروف أن الدول الحديثة اليوم تتبع طريقتين فى انتقاء الممثلين الدبلوماسيين : الأولى ، اختيار المبرزين الأولين فى مسابقات علمية عامة ، يجرونها بعد اختبار دقيق للمرشح ، وتتبع لأحواله وصفاته ، إذ تكشف هذه المسابقات عادة عن مبلغ فهم المرشح وثقافته . وفى أغلب الأحيان تكون هذه الطريقة خاصة بانتقاء الدبلوماسيين المبتدئين . أما الطريقة الثانية ، فهى اختيار من لمست فيه الكفاية والزكانة وعرف بالدهاء ليكون رسولا أوسفيرا دون امتحان يجرى أو عقد مسابقة .

واتبع العرب نفس الطريقتين السالفتين مع تعديل يسير فى الطريقة الأولى . إذ كان الخلفاء المسلمون يقومون بأنفسهم باختيار المرشحين للسفارة ، وذلك بعد الإجراءات الأولية التى يقوم بها الموظفون المختصون بالسلك السياسى . وكان فى الدولة الإسلامية فى صدرها الأول ديوان يسمى ديوان الرسائل ، يختص بالمكاتبات مع الملوك وغيرهم من رؤساء الدول المجاورة للدولة الإسلامية . وقام كاتب الرسائل فى العصر الأموى والعباسى كذلك بالتمهيد لاختيار السفراء وإعداد الكتب التى يحملونها .

وعرفت بعض الدول الإسلامية مثل الخلافة الفاطمية فى مصر أهمية هذا الديوان ، وأطلقت عليه اسم ديوان الإنشاء ،

لأهمية تحرير الرسائل به . وكان صاحب ديوان الإنشاء أشبه بكاتب الرسائل ، يقوم بمهمة وزير الخارجية فى العصر الحاضر ، من حيث إعداد السفراء وما يلزمهم من مطالب . ولكن حرص الخلفاء المسلمون برغم هذه الإدارات الدقيقة على اختيار المرشحين للسفارة بأنفسهم .

ومن أمثلة تلك الاختبارات الطريفة ماحدث لأحدالمرشحين للسفارة إلى بلاد الروم لتمثيل الخلافة الأموية ، وهو عامر ابن شراحيل الشعبى . فقد كان هذا المرشح من فقهاء الكوفة وعلمائها وحجة فى تاريخ العرب قبل الإسلام وأنسابهم وأشعارهم . ووقع عليه اختيار الحجاج بن يوسف الثقفى والى العراق إذ ذاك ، ليبعث به إلى الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان ، الذى أراد أن يوفده سفيرا إلى البلاط البيزنطى .

وعندما قابل الشعبى الخليفة جرى الاختبار التالى :

قال الخليفة : يا شعبى ، ما العلم ؟

فقال : هو ما يقربك من الجنة ، ويباعدك من النار .

قال الخليفة : يا شعبى ، ما العقل ؟

فقال : ما يعرفك عواقب رشدك ، ومواقع غيك .

قال الخليفة : متى يعرف الرجل كمال عقله ؟

فقال : إذا كان حافظا للسانه ، مداريا لأهل زمانه ، مقبلا على شانه .

ثم قال الخليفة عبد الملك : يا شعبي ، أنشدنى أحكم ما قالته العرب وأوجزه .

فقال الشعبي : يا أمير المؤمنين قول زهير :

ومن يجعل المعروف من دون عرضه
يفره ومن لا يتق الشتم يشتم

وقول النابغة :

ولست بمستبق أخـًـا لا تلمـــه
على شعث أى الرجال المهذب

وقول عدى بن زيد :

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينـــه
فكل قرين بالمقـــارن يقتـــدى

وقول طرفه :

ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلا
ويأتيك بالأخبـــار من لم تـــزود

وقول الحطيئة :

من يفعل الخـــير لا يعدم جوازيه
لا يذهب العرف بين الله والنـــاس

وانتقل الخليفة بعد ذلك إلى امتحان الشعبي امتحانا أشبه باختبارات الذكاء اليوم ، والتي تبين مقدار ضبط المرء لنفسه . وكان الشعبي ضئيل الجسم ، لا يبعث منظره لأول مرة على العلم الغزير الذى يعرفه . فقال له الخليفة عبد الملك : « إنك لدميم يا شعبيّ ! » فأجاب الشعبي على الفور : « زوحمت فى الرحم يا أمير المؤمنين » ، كناية عن أنه ولد توأم .

ومما زاد إعجاب عبد الملك بالشعبي تلك الروح الخفيفة الفكهة التي تحلى بها ، وقدرته على الدعابة الطريفة . فقد سأله الخليفة عن نوادره حين جلس للقضاء ، فقال الشعبي : اختصم إلى امرأة وبعلها ، وكانت حسنة المظهر جميلة الوجه ، وعلى حق فى دعواها ، فقضيت لها . غير أن بعلها اتهمني بالتحيز وكتب إليّ رقعة فيها :

فـــتن الشعبيَّ لمـــا رفع الطرف إليهـــا
حين ولت بـــدلال ثم هزت منكبيهـــا

فتنته بقوام وبخطى حاجبيها
ومشت مشيا رويدا ثم هزت منكبيها
وقضى جورا على الخصم ولم يقض عليها
كيف لو أبصر منها نحرها أو ساعديها
لصبا حتى تراه ساجدا بين يديها

فسأل الخليفة الشعبي : وماذا فعلت عندئذ ؟ فأجاب أمرت بضربه حتى أوجعت ظهره . ثم أردف الشعبي فى ذكر نوادره قائلا : جاءنى رجل يخاصم إلى ، فقلت له : ما اسمك ؟ فقال : خركوش ، فأمرت بالسوط ، فقال الرجل : أمهلنى ساعة حتى آتيك وأنا أحسن الناس كنية ، فتركته ساعة ، وحين دخل على قلت له : ما اسمك ، قال : أبو عمرو ، فخليت سبيله لحسن تصرفه .

واستمع الخليفة فى إعجاب تام إلى فكاهة الشعبي ، الذى أضاف إلى نوادره فى القضاء ، نوادر أخرى اجتماعية حدثت له ، فقال للخليفة : طلب رجل امرأة ، وجاءنى أهلها لاستشارتى فقلت : هو رزين المقعد ، نافذ الطعنة ، فزوجوه ، ثم علم أهل المرأة أنه خياط ! فقالوا للشعبي : غررتنا ، فقال : ما كذبتكم ! ثم روى أيضاً أن جماعة من الناس سألوه مرة : ما اسم امرأة

إبليس ؟ فقال : إن ذلك لعرس ما شهدته .

وبذلك اجتاز الشعبي الامتحان الذى عقده له الخليفة عبد الملك بن مروان ، وأثبت أنه على درجة كبيرة من العلم والمعرفة بالتاريخ والأنساب وآداب العرب ، فضلا عن قوته فى ضبط أعصابه ، وروحه الفكهة التى جعلته يتخلص من كثير من المآزق . وتلك الصفات جميعها أهلت الشعبي ليكون خير سفير للدولة الإسلامية ، حيث أرسله الخليفة عبد الملك فى سفارة إلى إمبراطور الروم . ولعل خير تقدير ناله الشعبي فى ذلك الامتحان قول الخليفة له : يا شعبي ، إنك لكنيّف علم .

صفات السفراء :

وإلى جانب الاختبارات التى أجراها الخلفاء والمختصون لانتقاء السفراء ، فإنهم تطلبوا فى السفراء عدة صفات هامة ، ما زالت تلعب دورا رئيسيا إلى اليوم عند اختيار السفراء فى الدول الحديثة . وأول تلك الصفات التى اهتمت بها الدولة الإسلامية هى الصفات الجسمانية ، التى جعلوا لها المكان الأول . فقال رجال الدبلوماسية الإسلامية : « يستحب فى الرسول تمام القد وامتداد الطول وعبالة الجسم ، فلا يكون قميئا أو ضئيلا .

وأن يكون جهير الصوت وسيما لا تقتحمه العيون ولا تزدريه النواظر » .

وأكد أقطاب الدبلوماسية الإسلامية أهمية الصفات الجسمانية برغم ما يتحلى به السفير من الفصاحة وقوة الجنان ، لأن تلك المواهب الأخيرة لا تظهر لأول وهلة ، فقالوا : « وإن كان المرء بأصغريه ، مخبوءا تحت لسانه ، ولكن الصورة تسبق اللسان والجثمان يستر الجنان . وينبغي أن يجمل الرسول بكل ما أمكن ، لأن العامة ترمق الزى أكثر مما ترمق الكفاية ، ثم إن أعين الملوك تسبق إلى ذوى الرداء من الرسل ، وتطلب ذلك فى رسلها لئلا ينقص اختيارها حظا من خطوط الكمال ، ولأنها تنفذ واحدا إلى أمة ، وفذا إلى جماعة ، وشخصا إلى شخوص كثيرة . ولذا كان لا بد أن يكون السفير وسيما جسيما يملأ العيون المتشوقة إليه فلا تقتحمه ، ويشرف على تلك الخلق المتصدية له فلا تستصغره » .

وهكذا فطنت الدولة الإسلامية إلى ذلك العامل النفسى ، وأدركت أهميته عند اختيار سفرائها . فالمعروف أن العناية بالمظهر الخارجى من الجسامة والوسامة والقسامة والتجمل بأحسن الزى وألطفه ذات أثر كبير فى نفوس الرائين ، لأن النفس

الإنسانية مطبوعة على تعظيم الجميل ، مجبولة على رفعه وتكريمه ، في جمال الزى وجمال الجسم سحر يبهر النفوس .

واستلفت نظر أباطرة الروم ما كان عليه سفراء الدولة الإسلامية من مهابة فى الجسم وأبهة فى المظهر . فحدث أن أرسل الخليفة المعتصم بالله سفيراً إلى البلاط البيزنطى بالقسطنطينية . وعندما رأى الإمبراطور هيبة الرسول وكثرة تجمله ، وما صحبه فى رحلته من مظاهر العظمة والثراء قال للسفير : كم ترزق من مال سلطانك ؟ قال السفير : أرتزق أنا وولدى فى كل شهر عشرين ألف درهم أو نحوها .

وعندئذ قال الإمبراطور للسفير : لا بد أنك حصلت على هذا العطاء ، بسبب خدمة جليلة قدمتها للخليفة ، كأن تكون قتلت عدواً خطيراً له أو فتحت له إقليماً شاسعاً حافلا بالخيرات . فقال السفير : لم أفعل شيئا من هذا قط . فقال الإمبراطور : فبأى شىء تستحق هذا الرزق الكثير ؟ فقال السفير : إن للخلفاء خدما يتصرفون فى أنحاء المملكة ، لكل طائفة منهم مهامهم ، فمنهم من يعد للفتوح ، فهو يلبس السلاح ويقود الجيوش ، ومنهم من يعدّ للقضاء فهو يلبس القلنسوة التى يغطى بها رأسه ، ومنهم مثلى من يصلح أن توفده الخلفاء

للملوك ، ويحمل رسائلهم إلى مثلك من أهل الجلالة والقدر والسناء والذكر ، ولذا كان لا بد من اختيار الشخص الذى يكون أهلا لهذه المهمة الرفيعة الشأن .

وقد أعجب الإمبراطور بلباقة هذا السفير الإسلامى وحسن مظهره . وكذلك اهتم البيزنطيون بدورهم بالصفات الجسمانية لسفرائهم . وحدث أن بعث أحدهم إلى معاوية بن أبى سفيان سفيراً كان وسيماً جسيما يملأ العين . فأحب معاوية أن يداعب ذلك السفير الضخم الهيئة ، فقال له : « ما هذه الفدامة (أى الغلظة والجفاء) فيكم ؟ » فأجاب الرسول : « إنها عنوان نعم الله عندنا » . واستحسن معاوية هذا القول الذى جاء غاية فى السداد والأدب ، لأن السفير اعتد بنفسه ، واعتبر بسطة الجسم عنوانا على نعم الله على الإنسان .

وقام إلى جانب الصفات الجسمانية التى اشترطتها الدولة الإسلامية فى سفرائها صفات خلقية ، قل أن تتوافر جميعا لرجل واحد ، حتى إذا ما تجمعت لإنسان صار جديرا بالسفارة والرسالة ، وأن يمثل رأس الدولة فى الخارج .

ومن تلك الصفات الخلقية أن يكون السفير على درجة كبيرة من نفاذ الرأى وحصافة العقل تجعله يستنبط غوامض الأمور ،

ويستبين دفائن الصواب ويستشف سرائر القلوب ويأتى عمله عن بينة ، ويدع ما لا يستحب عمله عن خبرة . وقد راعت الدولة الإسلامية أن يتحلى السفير كذلك بالفصاحة ، « ليعجب السامع بطلاوة حديثه ، ويسحره بحلاوة لسانه ، ويفتنه بخلابة لفظه . ثم ليكون كلامه ممتعا أنيقا ، نافعا لذًّا فى الاستماع ، فإن للبيان من السحر ما لا ينكر ، وإن له فى التوصل إلى البغية ما هو معروف » .

ولا بد إلى جانب الفصاحة من ذكاء القلب والقدرة على فهم « الإيماء » ، حتى يدرك السفير حجة خصمه قبل النطق بها ، ويستطيع أن يبرم ما نقض ، وينقض ما أبرم ، ويفعل ذلك كله بطبع لا تكلف فيه ، لأن المتكلف أسرع الناس إلى الفضيحة ، وعندئذ يسهل عليه أن يحتال فى محاوراته ومكايده ، حتى يبلغ مراده .

وينبغى ألا يخلو السفير من « جرأة وإقدام » ، لأن الجرأة أكبر جنة من المخاوف وأقوى معين على النجاة وأضمن سبيل لبلوغ الهدف . وفضلا عن ذلك يحتاج السفير إلى كثير من الحلم وكظم الغيظ مثل ما يحتاج إلى الصبر . فإن الرسول ربما وُجه إلى سخيف ، ودفع إلى طائش ، فبدرت منه الكلمة

البذيئة ، التى يجب أن يقابلها بالحلم ، وقد قيل : « والرسول مع الحلم والكظم أخلق بالنجاح وأجدر ببلوغ المراد » .

وللتأنى المحل الثانى بين صفات السفير ، لأنه إذا لم يكن متأنيا ، وقابل حاكما حازما ، اندفع إلى إبرام أمور تضر بدولته ، بسبب العجلة ، وتكوين الرأى دون بصيرة وأناة . وقيل إن السفير الذى لا يتسم بالتأنى « إما أن ينقاد إلى مؤاتاة من أرسل إليه ، وإما أن يعود بأمر لم ينفصل ورأى لم ينبرم » .

والرسول بعد ذلك يحتاج إلى ترك الإفراط فى الانقباض والحشمة ، لأن الانقباض يوجب الوحشة والانبساط يوجب المؤانسة ، والمؤانسة تجمع القلوب . وكان لا بد للسفير من التظاهر بتلك الصفات حتى لا تكون الوحشة سبيلا إلى النفور ويكون النفور سبيلا إلى الإخفاق .

وقد فطنت الدولة الإسلامية إلى أمرين لهما شأن كبير فى التعليمات التى زودت بها سفراءها : الأول أنها حذرت السفير إذا بلغ أرض المرسل إليه من شرب الخمر والإفراط فيه ، لأن الخمر تفضح شاربها فى أغلب الأحايين وتطلع على ما فى نفسه من الأسرار ، وألا يميل إلى النساء ، لأن للنساء حيلا بارعات يستخرجن بها الأخبار .

والأمر الثانى أن الدولة الإسلامية أوصت سفراءها بعدم التدخل فى شئون المرسل إليه وأمور مماكته ، وأن لا يحرش الملك على الرعية ، أو يتصل بشخصيات مشتبه فى أمرها لدى سلطان الدولة المرسل إليه .

وساعدت هذه الصفات الخلقية الرقيقة على خلق طبقة ممتازة من السفراء المسلمين ، الذين كانوا عنواناً كريما على سمو الدولة الإسلامية وتعاليمها الدبلوماسية الجيدة . وعجز حكام الدول الذين قابلوا السفراء المسلمين عن التأثير عليهم أو خداعهم بالخمر أو النساء ، كما وجدوا فيهم رجالا على جانب كبير من الأدب الجم والروح الخفيفة الظل .

على أن الصفات الجسمية والخلقية لم تكن كل شيء خاص بمؤهلات السفير ، وإنما أضيف إليها الثقافة العامة ، التى تجنب السفير من الزلل فى قوله ، وتقويه فى محاوراته ومحادثاته . ولم يكن يطلب من السفير التدقيق فى تحصيل كل علم ، وإنما الهدف أن يكون له إلمام بكل علم ، بحيث يمكنه أن يتكلم به إذا ما اضطر إليه . وأبلغ تعبير عن هذا المعنى قول الشعبى ، العلم أكثر من أن يحصى ، فخذ من كل شيء أحسنه .

وكانت الثقافة العامة السائدة فى تلك الأيام هى معرفة الأمور الدينية كالفرائض والسنن وأحكام القرآن ، وهناك الأدب وما إليه من رواية الشعر وما يتبعه من جودة البيان ، وهناك أصول الخراج ، أى ميزانية الدولة ، دخلها ومصروفاتها ، ثم السير والتواريخ التى توسع الأفق العلمى. وجمعت الدولة الإسلامية تلك الشروط فى هذه العبارة التى تنادى بأن السفير : « ينبغى أن يجمع الفرائض والسنن والأحكام والسير ليحتذى مثال من سلف فيما يورده ويصدره ، وأن يعلم أصول الخراج ، والحسبانات وسائر الأعمال ليناظر كلا بحسب ما يراه من صوابه وخطئه » .

* * *

وأخيرا لاحظ العرب كما تلاحظ الدول الحديثة اليوم ما للنسب من أثر عند اختيار السفراء ، ففضلوا السفير ذا المحتد الكريم والأصل النبيل على غيره . على أن نظرة العرب فى اختيار سفرائهم أعظم من نظرة الدول الحديثة ، التى ترى فى النسب وسيلة لكسب السفير مظهراً أرستقراطيا يجعله على اتصال بشاكلته من أهل الأمم التى يذهب إليها .

غير أن الدولة الإسلامية رأت فى اختيار أصحاب الأصل

العريق للسفارات سبيلا للسلوك الحسن ، لأن النبيل لا يصدر عنه إلا العمل النبيل ، ولا يجرؤ على ما يجرؤ عليه السافل الوضيع ، وهذا عملا بقانون الوراثة ، الذى يدفع أبناء الأسر الكريمة إلى النبل والسمو وكرم الأخلاق . وجاء فى شروط الدولة الإسلامية لاختيار السفير ما يلى : « وليكن من أصل الشرف والبيوتات ، فإنه لا بد مقتف آثار أوليته ، محبب لمناقبها مساو لأهله فيها » .

* * *

ولا شك أن تلك الصفات جميعها السالف ذكرها من جسمية وخلقية وثقافية ومن الأصل العريق ، قلما تجتمع لشخص واحد ، مما أدى إلى تشكيل السفارة فى كثير من الأحوال من أكثر من شخص ، بحيث تكمل مواهب الواحد منهم مواهب الآخر . وكان يتولى رئاسة السفارة أكثر الأعضاء تمتعا بالصفات السالف ذكرها . وفى بعض الأحيان كان شخص واحد يبعث بالسفارة إذا توافرت فيه الشروط التى تتطلبها المهمة الموفد من أجلها .

* * *

وجرت العادة على إرسال من يقع عليهم الاختيار للسفارة

فى مهام محلية بسيطة ، لاختبار مدى ما عندهم من مواهب .
وفى بعض الأحيان كان يخفق السفير فى هذا الاختبار ، وعبر
أحد الشعراء عن هذا الإخفاق بقوله :

وكنت إذا بعثت به رسولا … يدانى قبــل أن يمضى بياس
وأنسانى وما وجهت فيــه … على أنى ذكور غير ناسى
ويرجع — لا رعانى الله فيه — … إلىّ بخيبة بعد احتبــاس
يرد برأسـه أبداً جـوابى … أرانيـه الإله بغير راس

* * *

وعندما يتم السفراء تدريبهم ، ويتأكد أولوا الأمر من صفاء
معدنهم وقوة مواهبهم يرسلونهم إلى خارج البلاد . وأدت هذه
الاحتياطات العظيمة التى اتخذتها الدولة الإسلامية فى مرشحيها
للسفارة إلى تمتعها بالمكانة الأولى فى عالم الدبلوماسية فى العصور
الوسطى ، كما ترك الخلفاء المسلمون وغيرهم من قادة البلاد
نماذج عالية يحتذيها الخلف عن السلف فى اختيار ممثليهم
الدبلوماسيين . ولقد جمع أحد الشعراء فى أسلوب رقيق تقاليد
الدبلوماسية الإسلامية فى انتقاء سفرائها بقوله :

إن الرسول مكان رأيك فالتمس
للرأى آمن من وجــدت وأنصحــا

تأبى الأمور على الغبي فإن سـعى
فيهـا الذكى فبالحرى أن تصلحـا
فإذا توخيت الرسـول فلا تكن
متجـوزاً فى أمـره متسمحا
وتوَخَّ فى حسن اسمـه وروائـه
قـول النبى تيمنـا وتنجحـا
واجعـله إما ماضيـا أو نافـذا
أو ياسراً أو منجحـا أو مفلحـا



٣
قواعد اللياقة
أو
البروتوكول

المراسيم الدبلوماسية :

جرت الدولة الإسلامية فى إيفاد سفاراتها وفى معاملتها لسفراء جيرانها على نسق لا يختلف كثيرا عن المراسيم الدبلوماسية التى نشاهدها اليوم فى الدول المعاصرة . فكانت هناك قواعد مقررة يتبعها أولو الأمر فى الدولة الإسلامية عند إيفاد سفرائهم وكذلك عند استقبال سفراء البلاد الأجنبية . وقد سجلت تلك القواعد الدبلوماسية فى سجلات خاصة حفظت فى ديوان الرسائل أو وزارة الخارجية فى المصطلح الحديث .

وفضلا عن ذلك وصلتنا صور جليلة عن سلوك السفراء المسلمين وتصرفاتهم الدبلوماسية فى كتاب وضعه أحد أباطرة الدولة البيزنطية وسماه كتاب « المراسيم » حيث شرح فيه قواعد اللياقة أو البروتوكول فى البلاط البيزنطى . فجاء فى هذا الكتاب

البيزنطى مشاهد رائعة عن السفراء المسلمين الذين وفدوا إلى عاصمة البيزنطيين فى القسطنطينية ، وكيف كانت أعمال السفراء المسلمين موضع الإجلال والإعجاب ، بسبب ما تحلوا به من سجايا وكريم الخصال الدبلوماسية .

ويعتبر كتاب « المراسيم » البيزنطى بذلك مصدراً متمماً لما جاء فى المصادر الإسلامية عن قواعد اللياقة التى اتبعها سفراء المسلمين ، ومرآة صادقة لما جاء فى الروايات العديدة عن سمو الدبلوماسية الإسلامية . ويتضح من استعراض قواعد اللياقة الإسلامية أن استقبال السفراء وكذلك إيفادهم جرى حسب درجة المودة أو شدة الصلة مع الجيران المتاخمين لبلاد الدولة الإسلامية . وهذا التفاوت فى إعداد السفارات أو استقبالها يشبه ما نراه اليوم من تباين فى التمثيل السياسى بين الدول المختلفة من حيث عظمتها أو مقدار ما بينها من صداقة ، فترفع التمثيل السياسى بينها إلى مرتبة السفارة أو إلى درجة المفوضية ، وغير ذلك من المراتب الدبلوماسية المعروفة اليوم .

ودأبت الدولة الإسلامية على أن ترسل إلى البلاط البيزنطى خاصة سفارة على درجة كبيرة من الإعداد أشبه بما تقوم به الدول الحديثة الكبرى اليوم من رفع تمثيلها السياسى إلى درجة

السفارة ، على حين توفد إلى جيرانها من الدول الصغرى سفارات متواضعة أشبه بما نعرفه بالمفوضيات . وهذا التفاوت فى إعداد السفارات الإسلامية اقتضته طبيعة التمثيل السياسى فى العصور الوسطى ، الذى لم يعرف إنشاء دور سفارات دائمة فى البلاد الأجنبية على نحو ما هو مألوف فى عصرنا الحاضر . ولكن فيما عدا هذا التباين اليسير بين التمثيل السياسى فى العصور الوسطى والعصور الحديثة ، فإن قواعد اللياقة أو البروتوكول الإسلامى لم تختلف عن المراسيم الدبلوماسية الحديثة ، والتى تحرص الدول اليوم على اتباعها ومراعاتها .

أوراق الاعتماد وجواز السفر :

وأول شىء حرصت الدولة الإسلامية على تزويد سفرائها به ، واهتمت بتقديره عند السفراء الوافدين عليها ، هو أوراق الاعتماد وجواز السفر ، واستعراض تلك الوثائق الدبلوماسية الهامة فى حفل الاستقبال الذى يعد للسفير . وكانت أوراق الاعتماد عبارة عن كتاب صادر عن لسان الخليفة به تعريف بالسفير والغرض من رسالته ، ويطلب من أولى الأمر الوافد عليهم السفير اعتماده فى أقواله وأفعاله .

وكان يكتب هذا الكتاب أو أوراق الاعتماد كاتب خاص باللغة العربية ، وأحيانا يحمل ترجمة بلغة البلد الذاهب إليه السفير ، أشبه بأوراق الاعتماد اليوم ، حيث تكتب بلغة الدولة الموفدة ، وتشفع بترجمة لها بلغة الدولة الموفد إليها . وقد اشتهرت الدولة الإسلامية بعدد كبير من مشاهير الخطاطين ، الذين أبدعوا فى تسطير أوراق الاعتماد ، وتجميلها وتزيينها حتى تليق بمقام الدولة الموفد إليها السفراء المسلمون .

وجرت العادة على أن تكتب أوراق الاعتماد على الورق البغدادى ، وهو أجود الأنواع ، لأنه ورق ثخين مع ليونة ورقة حاشية ، ويخصص لكتابة المصاحف ، ولا يستعمل فيما عدا ذلك من أغراض الكتابة سوى مكاتبة كبار الملوك . على أن الدولة البيزنطية نافست الدولة الإسلامية فى تجميل أوراق الاعتماد التى زودت بها سفراءها. فمن ذلك أن ملك الروم بعث كتابا إلى الخليفة الراضى بالله فى بغداد مع سفرائه سنة ٣٢٦هـ ـ ٩٣٨م دونت كتابته الرومية (أى اليونانية) بالذهب وترجمته العربية بالفضة . وكان مطلعه : « من ملك الروم إلى الشريف الجليل سلطان المسلمين . باسم الآب والابن والروح القدس الإله الواحد . الحمد له ذى الفضل العظيم الرؤوف بعباده ، الذى

جعل الصلح أفضل الفضائل ، إذ هو محمود العاقبة فى السماء والأرض . لما بلغنا ما رزقته أيها الأخ الشريف الجليل من وفور العقل وتمام الأدب واجتماع الفضائل . . . نطلب إليك الهدنة والفداء » .

ومثلما اهتمت الدولة الإسلامية بنوع الورق الخاص باعتماد السفراء، غالت الدولة البيزنطية فى انتقاء أوراقها. فأرسل قسطنطين ملك الروم إلى عبد الرحمن الناصر بالأندلس كتابا خاصا باعتماد سفير ، وكان الخطاب فى رق مصبوغ ذى لون سماوى ، ومكتوبا بالذهب بالخط الإغريقى ، وعلى الكتاب طابع ذهب وزنه أربعة مثاقيل ، على الوجه الواحد منه صورة المسيح وعلى الآخر صورة قسطنطين الملك وصورة ولده . وكان الكتاب داخل درج فضة نقوش عليه غطاء ذهب فيه صورة قسطنطين الملك مصنوعة من الزجاج الملون البديع ، وكان الدرج داخل جعبة ملبسة بالديباج .

وجاء فى عنوان الكتاب من « قسطنطين ورومانوس المؤمنين بالمسيح الملكين العظيمين ملكى الروم... إلى العظيم الاستحقاق الفخر ، الشريف النسب عبد الرحمن الخليفة الحاكم على العرب بالأندلس » .

وإذا كانت أوراق الاعتماد تقتصر على بيان أغراض السفارة ، وذكر أساليب المودة والتبجيل ، فإن السفراء أخذوا معهم أوراق أخرى هى أوراق الجواز يكتب فيها اسم الرسول ولقبه وصفته والجهة التى يقصد إليها ، مع رجاء إلى السلطات المختصة بتسهيل مهمة انتقال السفير بإعداد خيل البريد لحمله إلى الجهة الموفد إليها ، ومعاملته بالإكرام .

وحرصت الدولة الإسلامية على ذكر ألقاب السفير ، مع بيان ما إذا كان من النبلاء أو مماليك النواب أو من كبار رجالات الدولة ، وذلك تقديراً منها لقواعد اللياقة أو البروتوكول ، ولتجنب بذلك سفراءها سوء المعاملة الدبلوماسية . وكان يذكر فى أوراق الجواز المدة التى سيقضيها السفير فى مهمته سواء أكانت مدة طويلة أم قصيرة ، حتى لا يستغل السفراء الإكرام والحفاوة فى أغراض تتنافى مع طبيعة عملهم الدبلوماسى . ذلك أن الدولة الإسلامية كانت تكلف أحيانا بعض كبار التجار بمهام دبلوماسية باعتبارهم أعرف بالبلاد التى يوفدون إليها ، ومن ثم كان تحديد مدة الإقامة يجنب الدولة الإسلامية محاولة استغلال أولئك التجار لمهامهم الدبلوماسية بالاشتغال بأعمال تجارية تسىء إلى كرامة السلطات الإسلامية ، أو تحط من قدرها .

وكانت أوراق الجواز التى يحملها السفراء المسلمون تشبه بذلك الجواز الدبلوماسى الذى يحمله السفراء اليوم ، ويتضمن اسم السفير وصفته والجهة التى يقصد إليها ، وذلك مع فارق واحد هو أن الجواز الإسلامى تضمن طلب إكرام السفير أوحمله على خيول البريد التى كانت أسرع وأحسن وسائل المواصلات إذ ذاك ، وهى أمور جعلتها المدنية الحديثة أشياء لا داعى لذكرها فى جواز السفر .

أمان السفراء أو الحصانة الدبلوماسية :

ويلى أوراق الاعتماد فى الأهمية مسألة أمان السفراء فى الدولة الإسلامية أو ما يسمى فى العصر الحديث «بالحصانة الدبلوماسية». فقد شملت الدولة الإسلامية السفراء الوافدين إليها بالأمان والسلام طوال مدة بقائهم فى بلادها حتى يعودوا مطمئنين إلى أوطانهم . واشتهرت الدولة الإسلامية منذ نشأتها بالحرص التام على تمتع السفراء عندها بالأمان أو بالحصانة الدبلوماسية ، كما ظل هذا نهج خلفائها على مر السنين والقرون .

وقد أكدت النصوص الفقهية الإسلامية والعرف الإسلامى كذلك هذا الأمان أو تلك الحصانة الدبلوماسية ، حتى صار

السفراء الوافدون على الدولة الإسلامية ينعمون بالطمأنينة التامة . فقال الفقهاء المسلمون : « إن الولاة إذا ما لقوا رسولا يسألونه عن اسمه ، فإن قال أنا رسول الملك بعثني إلى ملك العرب ، وهذا كتابه معي ، وما معي من الدواب والمتاع والرقيق فهدية له ، فإنه يصدق ولا سبيل عليه ولا يتعرض له ولا لما معه من المتاع والسلاح والرقيق والمال .

وكذلك لو أن المسلمين أسروا مركبا فى البحر ، وقال نفر من ركابها : نحن رسل بعثنا الملك ، فلا يتعرض لهم . وبذلك شملت الدبلوماسية الإسلامية بحصانتها السفراء الأجانب سواء أجاءوا من البر أم من البحر ، إذ يتمتعون بالأمان التام ، ولا يمسهم أحد بسوء أو يتعرض لهم إنسان بأذى . ويلاحظ أن النصوص الفقهية الإسلامية الخاصة بالحصانة الدبلوماسية للسفراء تطابق ما نادى به كبار رجال الدبلوماسية فى العصور الحديثة . فيقول العالم ڤاتل : « لما كان للسفارات شأن كبير فى المجتمع العالمى للدول ، وكان لا بد منها للسلام أو الأمان الذى يبغيه ، فإن الممثلين الدبلوماسيين المكلفين بالسفارة يجب أن يكونوا محصنين مقدسين عند الشعوب جميعا » .

وقد احترمت الدبلوماسية الإسلامية جميع حاشية السفراء

وأتباعهم على اختلاف درجاتهم ، حتى خدمهم وعبيدهم ، فبسطت الدولة الإسلامية حصانتها إلى سائر أتباع السفراء ، واعتبرت أية إهانة تلحق بأحدهم كأنما هي إهانة موجهة إلى شخص السفير نفسه . وبذلك وقفت قواعد البرتوكول الإسلامى على قدم المساواة مع أرقى المبادئ والعرف الدبلوماسى الحديث ، والتى تقرر اشتمال الحصانة الدبلوماسية على جميع أفراد السفارة حتى الخدم والسعاة فيها .

وظلت الدولة الإسلامية طوال عهدها حريصة على أمان السفراء ، وفية تمام الوفاء على هذه القاعدة الدبلوماسية السامية ، التى نادى بها القدامى والمحدثون من أقطاب السلك السياسى . فلم يذكر التاريخ حادثة عاملت بها الدولة الإسلامية السفراء الوافدين إليها معاملة تشذ عما قررته قواعد اللياقة فيها من أمان السفراء ، أو أن رجال الإدارة فى الدولة الإسلامية قد انتهكوا هذا المبدأ الدبلوماسى الجليل ، وذلك على حين روت المصادر التاريخية النماذج الكثيرة عن انتهاك جيران الدولة الإسلامية لمبدأ أمان السفراء أو حصانتهم الدبلوماسية . وقد وقعت دولة الروم نفسها أحيانا فى هذا الخطأ الدبلوماسى الذى تسامت الدولة الإسلامية عن التردى فيه .

الميزات الدبلوماسية :

وإلى جانب أمان السفراء منحت الدولة الإسلامية السفراء الوافدين عليها ميزات دبلوماسية كثيرة أشبه بما يتمتع به رجال السلك السياسي فى العصر الحاضر . فإذا كانت دور السفارات تعفى فى الوقت الحاضر من الضرائب التى تفرضها الدولة على رعاياها ، فإن الدولة الإسلامية أعفت الرسل والسفراء من الضرائب التى فرضتها على الوافدين إليها ، والتى كان أهمها العشر والمكوس .

وأكدت النصوص الفقهية الإسلامية هذه الميزة الدبلوماسية ، حيث نصت « على أنه لا يؤخذ من الرسول الذى بعث به ملك الروم عشر » . وكانت جميع أمتعة السفراء تعفى من الرسوم الجمركية عند سفرهم ويسمح لهم بأن يخرجوا ما يشاءون أن يخرجوه طالما كان ذلك لا يتعارض مع أمن الدولة .

وحرصت الدولة الإسلامية على مراقبة السفراء حتى لا يستغلوا هذه الميزة الخاصة بالإعفاء من الرسوم الجمركية وتهريب مواد قد تكشف أسرار الدولة الحربية ، فجاء فى النصوص الدبلوماسية : « لا ينبغى للإمام أن يترك السفراء يخرجون من ملكه بشىء من الرقيق والسلاح أو بشىء مما يكون قوة لهم على المسلمين ،

فأما الثياب والمتاع وما أشبهه فلا يمنعون منه » .

وتمتع السفراء الوافدون على الدولة الإسلامية كذلك بحرية العبادة والأحوال الشخصية ، كما بذلت السلطات الإسلامية جهداً كبيراً لتمنع كل أذى يمكن أن يحل بالسفير ، مهما كانت المساوئ التي تبدر منه .

مراسيم الاستقبال :

وإذا كانت شخصية السفير تحاط بالحصانة والأمان ، وكذلك مَن معه من الحاشية ، منذ تطأ أقدامه أرض الدولة الإسلامية ، فإن قواعد اللياقة الإسلامية لم تكتف بذلك ، وإنما أعدت للسفير أعظم مظهر دبلوماسى ، أشبه بما هو معروف اليوم من حفل تقديم أوراق الاعتماد . فكما أن الدول الحديثة تحيط هذا الحفل اليوم بكل مظاهر الحفاوة فإن الدولة الإسلامية سخت فى حفاوتها بالسفراء وتعهدهم بالرعاية والإكرام .

واستهدفت الدولة الإسلامية من مبالغتها فى الاحتفال بالسفراء هدفين : أولهما أن السفير يتكلم باسم رئيس دولته ، ولذا فإن إكرامه ، كإنما هو إكرام للملك المرسل نفسه ، والثانى

هو حرص الدولة الإسلامية على إظهار عظمتها وبذخها وقوتها لتوقع الرهبة فى نفوس الوافدين عليها ، فيروون لملوكهم ما شاهدوه وما سمعوه من مظاهر .

وكانت مراسيم استقبال السفراء تبدأ منذ دخول السفراء حدود الدولة الإسلامية ، إذ يقدم عمال الدولة الإسلامية لأولئك السفراء كل ترحيب ، وينزلونهم فى مساكن تليق بهم ، ويتولون الإنفاق عليهم من مأكل ومشرب ، بحيث تصير إقامتهم هينة رغدة ، كما يخصصون للسفراء الخفراء والأدلاء للسير معهم ، وهدايتهم عبر الطرق حتى يصلوا إلى دار الخلافة فى العاصمة .

وعندما يقترب ركب السفير من عاصمة الدولة الإسلامية يأمر الخليفة بإعداد موكب عظيم من الناس لاستقباله ، يضم الولاة والفقهاء والصوفية ، ويتصدره كبير موظفى الدولة . وإذا ما دخل السفير العاصمة فإنه كان ينزل فى مكان خاص أشبه بدار الضيافة ، كان يعرف فى بغداد زمن العباسيين باسم « دار صاعد » ، وأحيانا كان يعطى السفير داراً خاصة ينزل بها أو مدرسة من المدارس يقيم فيها مؤقتا .

وبعد أن يستريح السفير يوما أو أياما من عناء السفر يلتمس

مقابلة الخليفة . وجرت عادة الخلفاء على عدم استقبال السفير مباشرة ، ولكن بعد مقابلة الوزير ، أشبه بمقابلة السفراء لوزراء الخارجية فى أيامنا . إذ كان لا بد من مقابلة الوزير ومخاطبته فيما قصد السفير إليه وتقرير الأمر قبل مقابلة الخليفة . وكانت تلك المقابلة التمهيدية وسيلة لمعرفة أحوال البلاد التى وفد منها السفير والوقوف على سيرة ملوكها .

ومن أمثلة ذلك ما رواه الفضل بن مروان أحد وزراء المعتصم العباسى، إذ قال: كانت الرسل من جهة الملوك، إذا جاءت بالهدايا تأتى إلىّ أولا قبل مقابلة الخليفة ، فتكون المؤامرات فيما يجرى معهم من ديوانى ، فكنت أسأل الرسل عن سيرة ملوكهم وأخبار عظمائهم . فسألت رسول ملك الروم عن سيرة ملكه فقال :

« إن ملكنا ذو أناة عند القدرة ، وحلم عند الغضب ، وذو سطوة عند المغالبة ، وذو عقوبة عند الاجترام ، قد يسر رعيته بجميع نعمته وقد يضرهم بعنيف عقوبته ، فهم يتراءونه ترائى الهلال جمالا ، ويخافونه مخافة الموت نكالا . قد وسعهم عدله ، وردعتهم سطوته وكيده ، لا تمهنه مزحة ، ولا تؤسيه غفلة ، إذا أعطى أوسع ، وإذا عاقب أوجع ، فالناس اثنان :

راج وخائف ، فلا الراجى خائب ، ولا الخائف بعيد الأمل» .

على أن وزراء الدولة الإسلامية لم يغتروا بهذه الأقوال الدبلوماسية المنمقة وإنما حرصوا على الوصول إلى مبادئ عامة أو قرارات محددة مع السفراء خلال تلك المفاوضات التمهيدية ، حتى يكون يوم الاستقبال الرسمى يوما حافلا خاليا من الشوائب والمناقشات التى لا طائل منها . ومن ذلك أن الإمبراطور البيزنطى ثيوفيل بعث سفيراً إلى الخليفة المعتصم العباسى لإنهاء حالة التوتر بين الدولتين الإسلامية والبيزنطية . وقد احتجز وزير الخليفة المعتصم السفير البيزنطى مدة ستة أشهر حتى انتهى معه إلى قواعد مقررة ، وعندئذ تحدد يوم الاستقبال .

وفى هذا اليوم أخذ الجيش أماكنه من دار صاعد حيث ينزل السفراء إلى قصر الخليفة ، على حين أخذ كل فرد من موظفى القصر مكانه المخصص له ، مرتديا ثيابه الرسمية . ثم جلس الخليفة فى أبهى قاعات القصر ، وعن يمينه ويساره الوزراء وقادة الجيش ، والجميع متشح بأفخر الحلل . وكان خلفاء الدولة الإسلامية يحاولون يوم الاستقبال التلطف مع السفراء الوافدين عليهم والتبسط معهم فى الحديث ، لإزالة ما علق بنفوسهم من وحشة أو رهبة .

ومن ذلك أن الخليفة المعتصم العباسى حين قابل سفير الإمبراطور البيزنطى ، والذى احتجزه الوزير ستة أشهر ، قال له : « أرانا قد أضررنا بك لطول مقامك ! » فقال السفير : « إن طول المقام أوجب لى الذمام . ولم نزل نسمع من حكمائنا أن إبطاء الرسول يؤذن بالنجاح ، وما ضرنى مقام قرب منك ، وأشهد نعم الله عندك » . وكان لهذا الرد الدبلوماسى أثر طيب فى نفس الخليفة المعتصم ، الذى بالغ فى إكرام ذلك السفير .

وزودت الدولة الإسلامية سفراءها بتعليمات مشددة ليكون مظهرهم جليلا ، وسلوكهم رفيعاً فى حفلات الاستقبال . وروت المصادر الكثير عن كياسة السفراء المسلمين ، وكيف أنهم كانوا نماذج عالية فى الخلق والمسلك الدبلوماسى . فلم ترهبهم كثرة القوات التى كانت تعدها الدولة البيزنطية لتكون فى شرف استقبالهم ، كما أن المظاهر البراقة ، والزينات الفاخرة ، لم تأخذ بلبهم ، وإنما ظلوا دائماً ثابتى الجنان ، وعنوانا عاليا على عظمة الدولة الإسلامية .

وكانت تخصص للسفراء المسلمين أقرب الأماكن وأعلاها بالقرب من الأباطرة والملوك ، وذلك لأنهم يمثلون أعظم قوة معروفة إذ ذاك ، وهى قوة الخلافة الإسلامية . فإذا تصادف

وجود أكثر من سفير أجنبي فى البلاط البيزنطى ، كان يقدم عليهم جميعاً سفير الدولة الإسلامية .

وانتهز خلفاء الدولة الإسلامية يوم الاستقبال ليأذنوا للسفراء الأجانب فيه بمشاهدة عظمة عاصمتهم ، والوقوف على ما فيها من مرافق جليلة . وحرص الخلفاء كذلك على الاستماع إلى ملاحظات أولئك السفراء بأنفسهم والعمل على تلافى انتقاداتهم . ومن ذلك أن الخليفة المنصور العباسى ، حين وفد عليه رسول من قبل الإمبراطور البيزنطى ، كلف بعض ثقاته بأن يرافق السفير فى جولة طواف فى بغداد وكانت قد تم بناؤها منذ فترة يسيرة ، ويوقفه على مبانيها ومجتمعاتها .

وعندما عاد السفير إلى الخليفة ، قال له المنصور : كيف رأيت ما شاهدت ؟ فقال السفير : كل ما رأيت جليل نبيل ، إلا ثلاثة أشياء . قال الخليفة : ما هي ؟ فقال السفير : النفس خضراء ولا خضرة لك ، والماء حياة ولا حياة لك ، وعدوّك معك — يعني السوقة — لأن الأسواق كانت قريبة من القصر . فأجاب المنصور قائلا : أما الخضرة فإني خلقت للجد لا للهزل ، وأما الماء فحسبي منه ما بلّ الشفاه وروّي الصدى ، وأما مجاورة العوام ، فما أبالى أن يطلع على سرّى خاصتي وعامتي لأني لا أقصر فى شئون ملكى .

ولكن عندما انصرف السفير البيزنطى ، راجع الخليفة نفسه ، لأن رده لم يكن إلا تصرفا دبلوماسيا بارعا حتى لا يظهر أمامه بمظهر المعترف بما فى مدينته من عيوب : وبادر الخليفة العباسى بالاهتمام بالحدائق ولا سيما فى حى العباسية الذى كان يطل عليه القصر ، وشق قناة إلى بغداد ، ونقل العامة وأسواقهم إلى حى يعرف بالكرخ خارج بغداد .

وكان سفراء الدولة الإسلامية ينعمون فى القسطنطينية بمشاهدة مباهجها ولا سيما كنيسة أيا صوفيا وميدان السباق ، حيث تجرى حفلات سباق الخيل والعربات ومباريات المبارزة وغير ذلك من المباهج التى يعرضها الفنانون. وكثيراً ماكان الخلفاء يصطحبون السفراء معهم إلى ميادين لعب الكرة والصولجان ، أو إلى أماكن التنزه الجميلة ، على نحو ما نشاهده اليوم من حفاوة الدول الحديثة بالسفراء الوافدين عليها .

وعندما تنتهى مهمة السفير يودع بمثل ما استقبل به من حفاوة وترحيب ، وكان الخليفة يعد حفل استقبال آخر لا يقل روعة عن حفل الاستقبال الأول . ويمتاز حفل الوداع بالهدايا التى يغدقها الخلفاء على السفراء ، والتى كانت آية فى الروعة وعنوانا على عظمة الدولة الإسلامية وثرائها . وكان الخلفاء يزودون

السفراء بتوجيهاتهم من حيث الأمانة فى نقل ما شاهدوه وأن يكونوا رسل مودة وسلام .

وهكذا جرى العرف الدبلوماسى الإسلامى من حيث قواعد اللياقة أو البروتوكول على أرفع الأسس وأنبلها ، وترك المسلمون بين جيرانهم أطيب السير وأعطرها . وأشاد بهذا كله الإمبراطور البيزنطى قسطنطين السابع فى كتابه المسمى بالمراسيم . إذ ردد فى تعليماته لسفرائه الكثير من النماذج التى قدمتها الدولة الإسلامية لرجالها فى ميدان السلك السياسى ، كما عنى عناية خاصة بحض رجال دولته على معاملة سفراء الدولة الإسلامية معاملة ممتازة ، لعلو كعبهم فى الميدان السياسى ، وليجعلوا من الدولة البيزنطية نداً يقف على قدم المساواة مع الدولة الإسلامية فى ميدان البروتوكول الدبلوماسى أو قواعد اللياقة .

٤
التمثيل الدبلوماسى الإسلامى
فى شرق أوربا

« ا » سفارة عامر بن شراحيل الشعبى

كان التمثيل السياسى للدولة الإسلامية مع شرق أوربا أسبق وأوسع نطاقا منه مع غرب أوربا . ذلك أن دولة الروم (الدولة البيزنطية) فى شرق أوربا كانت أعظم قوى أوربا على الإطلاق فى العصور الوسطى ، وذات مصالح حيوية مع الدولة الإسلامية سواء من حيث التجارة أم ضروزة إقرار علاقات حسن الجوار بينهما . ومن ثم حفلت عواصم الدولة الإسلامية ودولة الروم بعدد وافر من السفارات تبادلها الطرفان ، وخلفت وراءها آثاراً باهرة فى ميدان التمثيل الدبلوماسى .

ومن أطرف تلك السفارات الإسلامية المبكرة مع دولة الروم سفارة عامر بن شراحيل الشعبى فى عهد الخليفة الأموى عبد الملك ابن مروان . وجاءت تلك السفارة عنوانا طيبا على عظمة الدبلوماسية الإسلامية فى تلك الفترة المبكرة من تاريخها . ذلك

أن عهد الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان شاهد تطورا خطيرا فى العلاقات الاقتصادية بين الدولتين الإسلامية والبيزنطية اقتضى معه نشاطاً دبلوماسيا واسعاً لإقرار تلك العلاقات بين الطرفين .

وكان هذا التطور فى العلاقات الاقتصادية بين الدولتين هو انفصال العملةالإسلامية عن العملة البيزنطية وأهمها الدينار البيزنطى . ذلك أن الدولة الإسلامية ظلت تتعامل إلى عهد الخليفة عبد الملك بن مروان بالدينار البيزنطى ، الذى كان العملة الدولية المعترف بها فى المعاملات التجارية . ولكن رغب الخليفة عبد الملك بن مروان فى سك عملة خاصة بالدولة الإسلامية ؛ تجعل دولته بعيدة عن التهديد البيزنطى أو التلاعب البيزنطى فى قيمة العملة .

ونفذ الخليفة عبد الملك بن مروان سياسته المالية فعلا ، وضرب الدينار الإسلامى على غرار الدينار البيزنطى ، مما جعل العملة الإسلامية محترمة معترفا بها منذ بداية عهدها . غير أن تلك العملة الإسلامية الجديدة خلقت جوا من التوتر والاضطراب بين الدولتين الإسلامية والبيزنطية ، مما استدعى نشاطا دبلوماسيا للتفاهم على تلك الأوضاع الجديدة . وفى هذه الفترة القلقة انتدب

الخليفة عبد الملك بن مروان عامر بن شراحيل الشعبي ليكون سفيراً له إلى البلاط البيزنطى .

ولم نعرف شيئا محددا عن المهمة الدبلوماسية أو الغرض من سفارة عامر بن شراحيل الشعبي ، إذ طويت فى زوايا أرشيف الدبلوماسية الإسلامية ، أشبة بالكثير من المهام الدبلوماسية التى لا يعلم أحد عن كنهها شيئا . وإنما خلفت لنا المصادر وصفا مفصلا عن سلوك الشعبي فى البلاط البيزنطى ، وكيف مثل السلطات الإسلامية خير تمثيل .

وتجلت مواهب الشعبي الدبلوماسية حين قابل الإمبراطور البيزنطى ، الذى بذل غاية جهده لينال من كرامة الدولة الإسلامية فى شخص سفيرها ، ويعجم عود هذه الدولة الفتية . إذ حاول الإمبراطور البيزنطى أن يدرك مدى ولاء سفراء الدولة الإسلامية لأولى الأمر فيها ، ويعرف بالتالى قوة الدعائم التى تنهض عليها الخلافة الإسلامية ، التى صارت مهيبة الجانب منذ صدر حياتها .

واستهل الإمبراطور البيزنطى أساليبه الدبلوماسية العميقة الغور حين خاطب الشعبي فى سياق الحديث قائلا : « أنت أحق بموضع صاحبك منه (أى أحق من الخليفة) . ولكن الشعبي

أجاب الإمبراطور على الفور إجابة رائعة مفحمة حيث قال : «على بابه (أى باب الخليفة) عشرة آلاف كلهم خير منى » .
فاستدرك الإمبراطور وقال : « هذا من عقلك » !

•الدعابات الدبلوماسية :

وبعد أن انتهى الإمبراطور البيزنطى من مفاوضاته السرية مع الشعبى ، دخل معه فى مناقشات أشبه بالدعابات الدبلوماسية إذ قال الإمبراطور للشعبى فى آخر مقابلة له : أريد أن أسألك عن ثلاث خلال ، فإن خرجت منهن فأنت أعلم الناس ، وكان حسن حديثك يمنعنى من ذلك . فقال الشعبى : فليسألنى الملك عما أحب ؛ فقال الإمبراطور : يا شعبى ، هل للعرب من الأمثال مثل أمثال العجم ؟

فقال الشعبى : نعم ، وعندنا مثل ليس فى الأرض مثله .

قال الإمبراطور : وما هو ؟

قال الشعبى : يا ابن آدم ، إذا لم تستح فاصنع ما شئت .

فقال الإمبراطور : ما سمعت بهذا المثل قط ، إنه لا يشبهه مثل .

وكان الشعبى كبير السن ، وخضب (صبغ) لحيته البيضاء

باللون الأصفر ، حين ذهب فى سفارته إلى بلاط الروم ، تجملا منه ، وإمعانا فى التمسك بالتقاليد الإسلامية الشائعة إذ ذاك ، فكان الخضاب الأصفر يعتبر سنة من سنن النبى . وعندما نظر الإمبراطور إلى لحية الشعبى قال له :

يا شعبى ، لم غيرت لحيتك بصفرة ، ألا صبرت على البياض كما ابتليت أو رددتها إلى نسجها الأول ، فخضبت بالسواد ؟

فأجاب الشعبى : هذى سنة نبينا .

فقال الإمبراطور : ما جاء به النبيون فليس فيه حيلة .

ثم أردف مخاطباً الشعبى قائلا : أخبرنى يا شعبى ، أنت خير أم أبوك ؟

فقال الشعبى : أبى خير منى .

فقال الإمبراطور : وأنت خير من ابنك ؟

فقال الشعبى : نعم

فقال الإمبراطور : وابنك خير من ابن ابنك ؟

قال الشعبى : نعم

فقال الإمبراطور : الحمد لله الذى أظفرنى بك يا شعبى ،

آخركم قردة إذا كنتم تزدادون فى كل قرن شرا .

ولا شك أن هذه الدعابة الدبلوماسية من إمبراطور الروم جرت على أساليب المنطق الذى أجاده الروم إذ ذاك ، وما حفل به إذ ذاك من دعابات تقوم على مقدمات تؤدى إلى نتائج تبدو مناقضة تماما للعرف والمألوف . وكانت دراسات المنطق ما زالت فى مهدها فى الدولة الإسلامية فى صدر حياتها ، ولا سيما فى تلك الفترة التى ذهب فيها الشعبى سفيرا لدولة الروم .

غير أن الشعبى لم يترك الإمبراطور يسترسل فى تلك الدعابة التى استندت إلى سفسطة لغوية ، وشرح له معنى إجاباته قائلا :

يروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « سيجىء فى آخر الزمان أقوام تكون وجوههم وجوه الآدميين ، وقلوبهم قلوب الشياطين ، أمثال الذئاب الضوارى ، ليس فى قلوبهم شىء من الرحمة ، سفاكون للدماء ، لا يرعوون عن قبيح . إن تابعتهم واربوك ، وإن تواريت عنهم اغتابوك ، وإن حدثوك كذبوك ، وإن ائتمنتهم خانوك ، صبيهم عارم ، وشابهم شاطر ، وشيخهم لا يأمر بمعروف ولا ينهى عن منكر . الاعتزاز بهم ذل ، وطلب ما فى أيديهم فقر . الحليم فيهم غاو ، والآمر بالمعروف متهم ، والمؤمن مستضعف، السنة فيهم بدعة ، والبدعة

سنة . فعندئذ يسلط الله عليهم شرارهم ، ويدعو خيـــارهم فلا يستجاب لهم » .

وقد أعجب الإمبراطور إعجابا شديدا بذكاء الشعبي ، واستولى عليه الحقد على الدولة الإسلامية الفتية لتمتعها بمثل هذا السفير العظيم[٢]. ولذا اختتم الإمبراطور جلساته مع الشعبي بإعطائه رقعة أو كتابا سريا مغلقا ، طالبا منه تسليمه مغلقا للخليفة ، ليفضه بنفسه ، ولم يعرف الشعبي مضمون هـــذا الخطاب ، وإنما حمله معه ، واحتفظ بسريته حتى عاد إلى دمشق.

وقابل الشعبي الخليفة عبد الملك وروى له ما دار بينه وبين الإمبراطور من مفاوضات ودعابات ، ثم سلمه أخيرا الخطاب المغلق قائلا : يا أمير المؤمنين ، حملني الإمبراطور رقعة وقال سلمها إلى الخليفة مغلقة كما أخذتها .

فقال الخليفة عبد الملك : لعلها كيدة من كيداتهم ، هاتها ! فأعطاه الشعبي إياها. فلما فض الخليفة كتاب الإمبراطور وقرأه رأى فيه ما يلي : « العجب لقوم فيهم مثل هذا (أي الشعبي) يملكون غيره ! »

فلما وقف الشعبي على ما تضمنت الرقعة ، طار لبه ، واستولى عليه الخوف ، خشية أن يظن به الخليفة الظنون ، وأن

يفهم من تلك الرسالة أمورا سيئة ارتكبها الشعبى فى حق الخلافة أثناء وجوده فى بلاط الروم . ولم يتمالك الشعبى نفسه أمام الخليفة ، وظهر عليه البله وقال : « يا أمير المؤمنين ، قال الإمبراطور ذلك ، لأنى كبرت فى عينيه ، ولأنه لم يرك ، ولو رآك لاحتقرنى ! »

غير أن الخليفة عبد الملك طمأن الشعبى ، لأنه فهم مقصد رسالة الإمبراطور ، وشرح ذلك للشعبى قائلا : « أحسنت فى سفارتك يا شعبى ! ولكن أتدرى ما أراد الإمبراطور بما كتب » ؟ فقال الشعبى : لا . فقال الخليفة : « حسدنى الإمبراطور عليك ، فأراد أن يغرينى ويحملنى على قتلك » .

وبذلك أثبت رجال السلك السياسى المسلمون فى صدر دولتهم أنهم رجال من الطراز الأول ، وأنهم موضع الإجلال والاحترام حيثما ذهبوا ، وأنهم على جانب عظيم من صفاء الذهن ، وفهم الحيل الدبلوماسية التى قد ينخدع بها كثير من الخبراء فى هذا الميدان الشاسع . ومن ثم لم يكن عجبا أن يتقدم المسلمون سريعاً فى مضمار الدبلوماسية ، ويضعون فيها من القواعد والنظم والتعاليم ما جعلهم يتفوقون فى العصر العباسى على منافسيهم الروم ، الذين كانوا يتمتعون منذ القدم بأنهم أساتذة العالم فى هذا الفن الدبلوماسى .

« ب » سفارة نصر بن الأزهر
إلى القسطنطينية

المفاوضات بشأن الأسرى :

وبقيام الدولة العباسية ازداد النشاط الدبلوماسى الإسلامى مع إمبراطورية الروم ، واتخذ طابعا أكثر دقة ووضوحا . ذلك أن اتخاذ العباسيين عاصمة لهم فى بغداد بدلا من دمشق عاصمة الأمويين جعلهم بعيدين عن خط الحدود الفاصل بين دولتهم ودولة الروم عند سلسلتى جبال طوروس جنوب آسيا الصغرى . ومن ثم وضع العباسيون نظاما يكفل لهم حماية أطراف دولتهم شمال الشام ، ومراقبة حركات البيزنطيين أو الروم داخل آسيا الصغرى . ذلك أن السلطات البيزنطية انتهزت انتقال مركز السلطان فى الدولة الإسلامية من دمشق التى كانت تقرب من ديارهم فى آسيا الصغرى إلى بغداد النائية عن تلك الديار فى أرض الرافدين وأخذت تشن إغارات مفاجئة على أراضى الدولة الإسلامية .

ولذا أقام العباسيون خطتهم الحربية على أساس إقامة سلسلة

من المعاقل والحصون على أطراف الشام الشمالية لتصد عدوان الروم المفاجىء ، ولتكون تلك الحصون كذلك مراكز أمامية للهجوم على أرض الأعداء فى آسيا الصغرى بغية عرقلة تحركات الروم الحربية قبل هجومها على أراضى المسلمين . وأدى هذا النظام الحربى الذى اتبعه كل من العباسيين والروم إلى كثرة الإغارات التى تبادلها الطرفان ، والتى لم تخل منها سنة من السنوات صيفا كان أم شتاء .

وترتب على تلك الإغارات الرتيبة صيفا وشتاء ، والتى سميت تبعاً لذلك بالصوائف والشواتى — ترتب عليها ازدياد فى التمثيل السياسى بين العباسيين والروم بغية وضع حد لحالة التوتر التى تكاد تكون مستمرة ، ولتبادل الأسرى الذين كثر عددهم أحيانا عند الطرفين نتيجة تلك الإغارات المفاجئة . ولذا يغلب على السفارات التى تبادلها العباسيون والروم طابع إنهاء حالات القتال ، ووضع نظام لتبادل الأسرى بين الفريقين ، وهو ما عرف باسم « الفداء » .

ومن أشهر تلك السفارات العباسية الخاصة بإقرار السلام بين المسلمين والروم سفارة نصر بن الأزهر إلى القسطنطينية سنة ٢٤٦ هـ / ٨٦١ م ، وكانت تلك السفارة العباسية ردا على

سفارة بعثها إمبراطور الروم وهو ميخائيل بن تيوفيل سنة ٢٤٥هـ / ٨٦٠م ، وطلب فيها إقرار السلام بين الدولتين وإجراء تبادل للأسرى بينهما . وجاء على رأس سفارة دولة الروم أعظم دهاتها الدبلوماسيين إذ ذاك وهو أطروبيليس ، الذى وفد على الخليفة المتوكل العباسى ومعه سبعة وسبعون رجلا من أسرى المسلمين ، عنوانا على حرص الروم على إظهار حسن نيتهم ، وصادق رغبتهم فى إعادة المودة والسلام ، وتبادل الأسرى .

وأجاب الخليفة المتوكل العباسى طلب سفارة الروم ، وذلك بسبب كثرة الأسرى من المسلمين والروم . فإن الخليفة المتوكل العباسى ولى الخلافة عقب فترة اتسمت بشدة الإغارات التى تبادلها العباسيون والروم ، والتى توغلت كثيرا فى جوف بلاد كل منهما . فوصلت بعض إغارات الروم مثلا إلى حصن زبطرة فى أعالى الفرات ، كما وصلت إغارات العباسيين إلى عمورية فى قلب آسيا الصغرى ، والتى تولى قيادتها الخليفة المعتصم العباسىَ نفسه ، حيث جلب للعباسيين أجل نصر سجاه الشاعر العظيم أبو تمـــام فى قصيدته المشهورة :

السيف أصدق أنبـــاء من الكتب
في حده الحد بين الجد واللعب

ولذا ورث الخليفة المتوكل العباسي تركة مثقلة جعلته يرحب بما عرضته سفارة الروم من تبادل للأسرى ، وبعث مع سفير الروم أحسن سفراء العباسيين إذ ذاك وهو نصر بن الأزهر ، الذي سبق أن مثل الدولة العباسية في بلاط الروم ، وصار خبيراً بشئونه وتقاليده ، وخير من يحافظ على حقوق المسلمين ويرعى سمو تقاليدهم الدبلوماسية .

وتجلت مواهب نصر بن الأزهر واعتداده بالتقاليد الدبلوماسية الإسلامية حين وصل إلى القسطنطينية ، إذ كان في أبهى زينة ، متشحا بالملابس السوداء ، وهي الزي الرسمي للعباسيين ، وعلى رأسه القلنسوة ، وهي لباس الرأس الرسمي الخاص بالعباسيين كذلك ، ومتمنطقا سيفا وخنجرا . فأبى القائم بأمور الإمبراطور ، أو وزير الخارجية ، وكان إذ ذاك بتروناس خال الإمبراطور أن يسمح للسفير الإسلامي بدخول قاعة الاستقبال على هذه الهيئة ، وأبدى اعتراضة بصفة خاصة على الملابس السوداء وعلى السيف .

غير أن السفير الإسلامي الحريص على تقاليد دولته الدبلوماسية

غضب ، وهم راجعا ، مما اضطر الدولة البيزنطية إلى ملاطفته ، وإصلاح خطئها الدبلوماسى حتى عاد إلى البلاط . وروى نصر ابن الأزهر حادثة سفارته فى قوله :

« لما صرت إلى القسطنطينية حضرت دار ميخائيل الملك بسوادى وسيفى وخنجرى وقلنسوتى ، فجرت بينى وبين خال الملك بطرناس المناظرة ، وهو القيم بشأن الملك ، وأبوا أن يدخلونى بسيفى وسوادى ، فقلت أنصرف . فانصرفت ، فرددت من الطريق ومعى الهدايا نحو من ألف نافجة مسك وثياب حرير وزعفران كثير وطرائف . وقد كان أذن لوفود برجان (من جيران الدولة البيزنطية) وغيرهم ممن ورد عليه ، وحملت الهدايا التى معى ، فدخلت عليه ، فإذا هو على سرير فوق سرير ، وإذا البطارقة حوله قيام ، فسلمت ثم جلست على طرف السرير الكبير ، وقد هيىء لى مجلس ، ووضعت الهدايا بين يديه . وبين يديه ثلاثة تراجمة . . . فقالوا لى : ما نبلغه ؟ ! قلت : لا تزيدوا على ما أقوله لكم شيئا ، فأقبلوا يترجمون ما أقول . فقبل الهدايا ، ولم يأمر لأحد منها بشىء وقربنى وأكرمنى ، وهيأ لى منزلا بقربه . فخرجت فنزلت فى منزلى » .

وأظهر نصر بن الأزهر بذلك كياسة دبلوماسية رائعة

نمت عن حسن استعداده السياسى ، حين أمر المترجمين بتوخى الدقة فى نقل كلامه ، كما أنه كان حريصاً على أن يظهر احترام الروم له حين ذكر أنه جلس فى مكان قرب السرير الكبير أى حيث يجلس الإمبراطور ، وأنه بذلك كان مقدما على سائر سفراء جيران دولة الروم ، الذين شهدوا هذا الاستقبال الرسمى . وكانت دولة الروم ترعى التقاليد الدبلوماسية مع الدولة الإسلامية وتخصص للسفراء المسلمين مركز الصدارة فى حفلات الاستقبال .

وبدأ نصر بن الأزهر مهمته الرسمية بعد انتهاء مراسيم الاستقبال من حيث إعداد التقارير عن حالة الأسرى لدى دولة الروم وعددهم . وكان يروح عن السفراء المسلمين وأعبائهم المضنية برنامج الحفلات والزيارات الذى تعده لهم السلطات البيزنطية . فكان فى القسطنطينية ميدان سباق (Hippodrome) يعتبر مرآة صادقة لحياة العاصمة الاجتماعية، وليس مقصوراً على حفلات السباق فحسب . وكان السفراء المسلمون يدعون إلى هذا الملعب ومشاهدة شتى المباريات فيه ، ولا سيما الألعاب البهلوانية التى يقدمها أشخاص مخصوصون أجادوا هذا الفن الشعبى .

وكانت تخصص للسفراء المسلمين مقصورة إلى جانب مقصورة الإمبراطور نفسه ، إمعانا فى إكرامهم . وحرصت السلطات البيزنطية على إتاحة الفرصة للسفراء المسلمين لمشاهدة كنيسة أياصوفيا ، حيث بلغ الفن البيزنطى وجمال البناء غايته فى هذا المكان الجليل . فكانت الدلايات والمباخر الفاخرة تأخذ بالألباب وتثير الروعة فى النفوس .

وتجنبت سلطات دولة الروم فى برامج الترفيه التى أعدتها للسفراء المسلمين عرض المناظر الساذجة والمساخر البسيطة التى كانت تؤثر بها على سفراء جيرانها من غير المسلمين ، من أهل البلاد المتخلفة حضاريا . فكانت هناك قاعات وردهات خاصة فى القصر الإمبراطورى تؤدى إلى قاعة الاستقبال الخاصة بالإمبراطور ، وامتلأت تلك القاعات والردهات الخاصة بتماثيل على هيئة الطير أو الحيوانات المفترسة ، تخرج منها أصوات بطريقة آلية ، أثناء اجتياز السفراء السذج لها ، مما يستولى على لبهم ويثير فى نفوسهم الهيبة ، ويخرون سجدا فى حضرة الإمبراطور .

وظل السفير الإسلامى نصر بن الأزهر بعيداً عن مثل هذه المناظر الساخرة ، وموضع إجلال سلطات دولة الروم واحترامهم ،

ولكن سرعان ما حدثت واقعة عارضة أوقفت المفاوضات بشأن إطلاق سراح الأسرى مؤقتا .

الاتفاق على تبادل الأسرى :

وكان السبب فى توقف المفاوضات التى اضطلع بها السفير نصر بن الأزهر مع سلطات دولة الروم هو حضور وفد من أهل حصن اللؤلؤة يعرض تبعية سكان هذا الحصن على السلطات فى القسطنطينية . وكان لحصن اللؤلؤة أهمية استراتيجية عظمى بسبب وقوعه فى منطقة الأطراف الفاصلة بين أراضى المسلمين فى الشام وأراضى الروم فى آسيا الصغرى . إذ سيطر هذا الحصن بفضل موقعه الهام على الطريق الرئيسى الممتد عبر سلسلتى جبال طوروس والذى يصل بين شمال الشام وآسيا الصغرى . ومن ثم كان للمهيمن على هذا الحصن المقدرة على منع الإغارات التى يشنها أى فريق من المسلمين أو الروم على البلاد المجاورة لهما .

ورحب الإمبراطور البيزنطى بحضور وفد حصن اللؤلؤة ، لأن هذا الحصن كان دائماً فى قبضة المسلمين عدا فترات يسيرة ، استطاع الروم فيها استمالة أهل هذا الحصن إليهم

بإغداق الأموال عليهم . فرأى الإمبراطور البيزنطى استغلال هذه الفرصة ، والضغط على السفير الإسلامى فى المفاوضات الجارية بينهما ، وكسب أكبر فائدة ممكنة .

وتغافل الإمبراطور البيزنطى بذلك عن السفير الإسلامى نصر بن الأزهر مدة أربعة أشهر . ولكن السفير الإسلامى أظهر فى تلك الفترة مهارة دبلوماسية فائقة ، إذ ظل ضابطا لأعصابه ، لا يعير هذا التغافل اهتماما ، ولم يطلب العودة إلى بغداد ، وإنما بقى هادئاً ، ينتظر ما يمكن أن ينكشف عنه هذا الحادث الطارئ الذى عرقل سير المفاوضات .

وآتت دبلوماسية السفير الإسلامى ثمارها ، ذلك أن أهل حصن اللؤلؤة ، سرعان ما ثاروا على السلطات الحاكمة فيه ، وأعلنوا ولاءهم مرة أخرى للدولة الإسلامية . وبذلك انقطع آخر أمل عند الإمبراطور البيزنطى فى كسب الموقف أثناء المفاوضات مع السفير الإسلامى ، وآثر السير سريعا فى إتمام تلك المفاوضات .

وسمحت سلطات دولة الروم للسفير الإسلامى بتفقد حالة الأسرى المسلمين عندها ، وإحصاء عددهم حتى يتم تبادل الأسرى وفق قواعد دقيقة . وكانت دولة الروم تحرص على

معاملة الأسرى من المسلمين معاملة تليق بكرامة الدولة الإسلامية . فكان هناك بالقرب من القصر الإمبراطورى دار خاصة بكبار الأسرى المسلمين ، ليكونوا تحت رعاية الإمبراطور مباشرة . أما سائر الأسرى من المسلمين فكانوا يوزعون للعمل فى المرافق العامة لدولة الروم كل حسب ما يعرفه من صنعة أو حرفة .

ولم تكره سلطات دولة الروم أسارى المسلمين على تغيير دينهم ، وكذلك لم تلزمهم بأكل لحم الخنزير أو غيره من الأشياء التى يحرمها الدين الإسلامى . وفضلا عن ذلك تجنبت تلك السلطات معاملة الأسرى معاملة وحشية ، ولم تطبق عليهم ضروب العذاب التى أنزلتها بأسارى جيرانها من غير المسلمين ، حيث شقت ألسنة الأسرى أو سملت (فقأت) أعينهم ، ولم تقف معاملة سلطات دولة الروم لأسارى المسلمين عند هذا الحد ، وإنما سمحت لبعضهم بالاتجار وحرية التنقل فى جهات معلومة .

وخصصت دولة الروم لأسارى المسلمين مناسبات يرفهون فيها عنهم ، ولا سيما فى يوم عيد ميلاد السيد المسيح . فمن حفلات الترفيه السماح لأسارى المسلمين بحضور ميدان بالقرب من القصر الإمبراطورى فيه حبل ممدود ، معلق به صورة فرس

من نحاس . وفى طرف آخر من الميدان تقف فرقتان متنافستان من الخيول ، يطلق الأسارى على إحداها خيل الملك ، وعلى الأخرى خيل الوزير ، ثم تنطلق هاتان الفئتان من الخيول ، فإن سبقت خيل الوزير استبشروا ، واعتقدوا أن الوقت قد قرب لإطلاق سراحهم .

وأما فى يوم عيد الميلاد فكانت تعد الموائد فى القصر ، ويحضر أسارى المسلمين ، « وعلى تلك الموائد من الحار والبارد أمر عظيم ، ثم ينادى منادى الملك فيقول : وحياة رأس الملك ما فى هذه الأطعمة شيء من لحم الخنزير ، وينقل إليهم تلك الأطعمة فى صحاف الذهب والفضة . . . والقوم كلهم جلوس على الموائد ، ويدخل عليه عشرون رجلا بأيديهم الحلباقات ؛ والحلباق الصنج يضربون فيها ما داموا يأكلون ، ويطعمون على هذه الصفة اثنى عشر يوما ، فإذا كان آخر هذه الأيام ، يعطى كل أسير من المسلمين دينارين وثلاثة دراهم » .

واسترعت هذه المعاملة الكريمة إعجاب السفراء المسلمين ، وسجلوها فى تقاريرهم التى شهدت بأن أسارى العصور الوسطى ، نعموا بنظم ومعاملة طيبة لا تقل عن القواعد التى يقرها العرف الدولى اليوم للأسارى فى أيامنا الحديثة . واستطاع السفير الإسلامى

نصر بن الأزهر أن يحصى عدد الأسارى من المسلمين فى سهولة ويسر بفضل التسهيلات التى قدمتها الساطات فى القسطنطينية . ووجد السفير الإسلامى أن عدد الأسرى المسلمين يبلغ ألفين منهم عشرين امرأة معهن عشرة من الصبيان .

وبعد الانتهاء من إحصاء عدد الأسرى المسلمين جرت المفاوضات مرة أخرى بين السفير الإسلامى والإمبراطور ميخائيل للاتفاق على تبادل الأسرى . وأظهر السفير الإسلامى فى تلك المفاوضات لباقة دبلوماسية وحذقا سياسيا بارعا . ذلك أن خال الإمبراطور كان يتولى المفاوضات ويجيب عن أسئلة السفير الإسلامى من دون الإمبراطور ، الذى اقتصرت إجاباته على هز رأسه بما يفيد « نعم » أو « لا » دون أن يتكلم . إذ حرص السفير نصر بن الأزهر على أن يعيد ما يتفق عليه مع خال الإمبراطور ، على الإمبراطور نفسه ، ويرى ماذا يجيب برأسه ، حتى يكون الاتفاق تاما ومؤكدا من الإمبراطور نفسه .

وعبر السفير الإسلامى عن نجاح مفاوضاته ، وحرصه على أخذ كل تعهد ممكن من الإمبراطور نفسه قائلا : « فأجابونى (أى السلطات فى القسطنطينية) إلى المحالفة فاستحلفت خاله ، فحلف عن ميخائيل . فقلت أيها الملك ، قد حلف لى خالك ،

فهذه اليمين لازمة لك ، فقال برأسه نعم . ولم أسمعه يتكلم بكلمة منذ دخلت بلاد الروم إلى أن خرجت منها ، إنما يقول الترجمان وهو يسمع فيقول برأسه نعم أو لا ، وليس يتكلم ، وخاله المدبر أمره ، ثم خرجت من عنده بالأسرى بأحسن حال حتى إذا جئنا موضع الفداء أطلقنا هؤلاء جملة ، وهؤلاء جملة » .

وكان موضع الفداء عند ضفاف نهر يسمى اللامس (وهو فى منطقة سلوقية) حيث جرت العادة على أن يقف أسرى المسلمين مع مندوبى سلطات دولة الروم على جانب هذا النهر الغربى ، ويقف المسلمون مع أسارى الروم على جانبه الشرقى . وكانت تختار بقعة من النهر يسهل مد جسرين عليها ، أحدهما خاص بالمسلمين والآخر بالروم . ثم يحضر هذه العملية الخاصة بتبادل الأسرى أو « الفداء » كبار رجال الدولتين الإسلامية والبيزنطية ، وحكام منطقة الحدود .

وبعد ذلك يبدأ الفريقان عملية الفداء بأن يرسل فريق من ناحيته أسيرا ، والآخر يطلق بدوره أسيرا ، بحيث يلتقى الإسيران فى منتصف جسر كل منهما . فإذا صار الأسير المسلم إلى المسلمين كبر ، وكبروا ، وإذا « صار الرومى إلى الروم تكلم

بكلامهم ، وتكلموا شبيها بالتكبير » ، وتتكرر هذه العملية حتى يتم الفداء .

واستغرقت عملية الفداء سبعة أيام ، وحضرها من أولها إلى آخرها السفير نصر بن الأزهر ، ليشهد صحة الإجراءات التى تم الاتفاق عليها مع ساطات دولة الروم . ثم عاذ نصر بن الأزهر إلى بغداد مسجلا هذا النصر الدبلوماسى الباهر فى ميدان تحسين العلاقات بين الدولتين الإسلامية والبيزنطية ، كما أضاف إلى سجله الحافل فى السلك السياسى صفحة ناصعة البياض .

« ج » سفارة الإمبراطور قسطنطين السابع
إلى الخليفة المقتدر العباسى

الاستعدادات فى بغداد :

بلغ التمثيل السياسى بين الدولة الإسلامية ودولة الروم أوج نشاطه فى عهد الخليفة المقتدر العباسى ومعاصره الإمبراطور قسطنطين السابع . ثم إن قواعد اللياقة أو البروتوكول عند كل من هاتين الدولتين قد تحددت إذ ذاك بشكل يدعو إلى الإعجاب والدهشة . إذ فى تلك الفترة الزاهرة من النشاط الدبلوماسى بين المسلمين والروم وضع الإمبراطور قسطنطين السابع كتابه « المراسيم » ليكون هاديا للسفراء الروم ورجال بلاطه فى ميدان السلك السياسى .

وبرغم الإعداد الذى تلقاه سفراء الروم فى عهد الإمبراطور قسطنطين السابع ، فإن الدولة الإسلامية وضعت من قواعد اللياقة أو البروتوكول ما أثار دهشة سفراء الروم ، وجعلهم يقفون موقف التلميذ من الأستاذ وهم فى حضرة الخليفة العباسى

المقتدر . إذ وفدت على هذا الخليفة فى سنة ٣٠٥ هـ / ٩١٧ م سفارة من عند الإمبراطور قسطنطين السابع ، الذى اشتهر بالأبهة والميل إلى حسن إعداد سفرائه .

وعندما وصلت إلى الخليفة المقتدر أنباء اجتياز سفارة إمبراطور الروم للحدود فى طريقها إلى بغداد أمر الخليفة السلطات الإسلامية بحجز سفارة إمبراطور الروم فى تكريت ، شمالى بغداد ، حتى يفرغ من إعداد قصره وعاصمته ، ويجملها ويزينها بما يليق بعظمة الدولة الإسلامية ، وليكون استقبال تلك السفارة شاهدا على علو كعب المسلمين فى ميدان الدبلوماسية .

وأقامت سفارة الروم فى تكريت شهرين ، تابعت بعدها السفر إلى بغداد . وفى العاصمة ، قضت السفارة شهرين آخرين قبل أن تحظى بمقابلة الخليفة المقتدر . وفى تلك الأثناء كانت العاصمة قد أخذت ثوبا قشيبا ، وامتلأت بالزينات الفاخرة . وأخذ سكان بغداد يزينون منازلهم على جانبى الطريق الذى أعد لموكب سفراء الروم ، حتى غدت « أسواق الجانب الشرقى وشوارعه وسطوحه ومسالكه مملوءة بالعامة النظارة . . . وزينت كل غرفة مشرفة ودكان ... بأفضل زينة وأحسن ترتيب وتعبية ».

وفى نفس الوقت بذل الخليفة جهداً عظيما فى إعداد «قصر

التاج » وهو المقر الرسمي إذ ذاك للخلافة، ومكان استقبال السفراء. ويقع هذا القصر على دجلة ، ويتصف بالسعة والبهاء وبكثرة القباب والمجالس . واهتم الخليفة المقتدر اهتماما خاصا بهذا القصر ، الذى غدا عنوان العاصمة وسلطانها ، وأكثر فيه من الخدم والحشم ، حيث بلغ عددهم « أحد عشر ألف خادم خصى ، وكذا من صقلبى وروى وأسود » .

ووصف شاهد عيان زينة القصر في بغداد لاستقبال سفارة الروم قائلا : « كان عدد ما علق فى قصور أمير المؤمنين المقتدر بالله من الستور الديباج المذهبة بالطرز المذهبة الجليلة ، المصورة بالجامات والفيلة والخيل والجمال والسباع . . . ثمانية وثلاثين ألفا وخمسمائة ستر ، وعدد البسط . . . فى الممرات والصحون التى وطىء عليها القواد ورسل صاحب الروم . . . سوى ما فى المقاصير والمجالس من الأنماط . . . . اثنان وعشرون ألف قطعة » .

ولم يقف الاستعداد عند الفرش والبسط ، وإنما أخذ سائر موظفى قصر الخلافة ، وخدمه وحشمه يرتدون ملابسهم الرسمية ، ويزينون مجالسهم ، حتى غدا القصر بأجمعه على تمام الأهبة لاستقبال سفارة الروم استقبالا رسمياً .

حفل تقديم أوراق الاعتماد :

وبعد انتهاء الشهور الأربعة التى قضتها سفارة إمبراطور الروم فى تكريت وبغداد تحدد اليوم الرسمى لمقابلة الخليفة المقتدر العباسى . وفى هذا اليوم صف العسكر من دار صاعد ، وهى دار الضيافة الرسمية فى بغداد إلى قصر الخلافة ، « ووقف الجند صفين بالثياب الحسنة ، وتحتهم الدواب بمراكب الذهب والفضة ، وبين أيديهم الجنائب على مثل هذه الصورة . . . وكان عدد الجيش مائة وستين ألف فارس وراجل » .

وخرج ركب السفارة من دار صاعد ، وفى صحبتها أبو عمر الطرسوسى حاكم منطقة الحدود الإسلامية شمالى الشام ، وهو الذى رافق السفارة أيضاً منذ دخولها الأراضى الإسلامية . وكان هذا الحاكم المسلم يرتدى قباء أسود ويحمل سيفاً ومنطقة ، وبكامل زيه الرسمى . ووصل الركب أولا إلى دار نصر القشورى الحاجب ، أو كبير تشريفاتى القصر بلغة العصر الحاضر . وهناك شاهد سفراء الروم استعدادا رائعاً ، أدخل على نفوسهم الرهبة ، وحسبوا الحاجب هو الخليفة . وعندما هموا بتقديم أوراق الاعتماد إليه ، قيل لهم إنه الحاجب .

ثم تابع الركب سيره حتى وصل دار الوزير أبى الحسن على بن محمد الفرات ، وهناك رأى السفراء استعداداً يفوق ما شاهدوه فى دار الحاجب ، وكادوا يكررون خطأهم الأول بتقديم أوراق الاعتماد إليه . ولكنهم علموا للمرة الثانية أنهم ما زالوا فى طريقهم إلى مجلس الخليفة . فتابع الركب سيره حتى وصل إلى مجلس قد علقت ستوره واختيرت فُرُشُه ، وأحاط به الخدم بالأعمدة والسيوف .

ومن هذا المكان دخلوا « إلى حضرة المقتدر بالله ، وهو جالس فى التاج مما يلى دجله ، بعد أن لَبس بالثياب الدبيقية (نسبة إلى دبيق من مدن مصر) المطرزة بالذهب ، على سرير أبنوس قد فرش بالدبيقى المطرز بالذهب ، وعلى رأسه القلنسوة الطويلة ، ومن يمنة السرير تسعة عقود مثل السبح معلقة ، ومن يسرته تسعة أخرى من أفخر الجواهر وأعظمها قيمة غالبة الضوء على ضوء النهار ، وبين يديه خمسة من ولده ثلاثة يمنة واثنان ميسرة » .

وكان يقف بالقرب من الخليفة كذلك مؤنس الخادم ونصر القشورى حيث اضطلعا بالترجمة عن الخليفة . وعندما دخل السفراء أخذتهم الرهبة من الخليفة ، ورغبوا فى السجود له

جريا على عاداتهم فى الدخول على إمبراطورهم . ولكنهم منعوا من فعل ذلك لأنه أمر يخالف الشريعة الإسلامية وتقاليد بلاط الخليفة المسلم .

وقدم رأس السفارة ، وكان شيخا جليلا كتاب إمبراطور الروم إلى الخليفة ، ويضم تعريفا بأعضاء السفارة ، ويطلب من السلطات الإسلامية إجراء فداء وإيقاف حالة الحرب بين الدولتين . وكان الخطاب أو أوراق الاعتماد كبيرة الحجم فتناولها الخليفة وقبلها إعظاما لها ، وإجلالا لتلك السفارة وتقديرا منه لنبل مقصدها . وكان مع السفارة مترجم خاص بها يسهل مهمة تبادل الآراء والمناقشات .

واستغرق هذا الاستقبال الرسمى ساعة ، لقى فيها سفراء الروم من عطف الخليفة وترحيبه ما جعلهم يطمئنون إلى نجاح مهمتهم . وكانت السلطات الإسلامية تحرص من جانبها على احترام السفارات التى تفد من دولة الروم بشأن تبادل الأسرى أو الفداء ، وتقدم لأعضاء تلك السفارات كل إجلال وتقدير . وبذلك نعم أفراد سفارة الإمبراطور قسطنطين باستقبال ودى من الخليفة وقضوا وقتهم وسط مظاهر الحفاوة والتكريم .

وبعد انتهاء الاستقبال الرسمى، وعندما هم السفراء بالخروج

أمر الخليفة بالمبالغة فى إكرامهم، والسماح لهم بالتجول فى القصر ومشاهدة ما يحويه من مباهج وقاعات فاخرة . وصحب السفراء فى الخروج أبو عمر الطرسوسى ، الذى لازمهم كذلك فى الطواف بأرجاء قصر الخلافة .

برنامج الترفيه :

وكانت قصور الخلافة ضمن برنامج الترفيه الذى أعد لسفارة الروم ، وعرض ما بها من كنوز ومحتويات . روى أحد المرافقين لسفارة الروم استعداد القصر قائلا : « أدخل رسل صاحب الروم من دهليز باب العامة الأعظم إلى الدار المعروفة بخان الخيل ، وهى دار أكثرها أروقة بأساطين رخام ، وكان فيها من الجانب الأيمن خمسمائة فرس عليها خمسمائة مركب ذهبا وفضة بغير أغشية ، ومن الجانب الأيسر خمسمائة فرس عليها الجلال الديباج . . .

ثم أدخلوا من هذه الدار إلى الممرات والدهاليز المتصلة بحير الوحوش ، وكان فى هذه الدار من أصناف الوحوش التى أخرجت إليها من الحير قطعان تقرب من الناس ، وتتشممهم وتأكل من أيديهم . ثم أخرجوا إلى دار فيها أربعة فيلة مزينة

بالديباج ، على كل فيل ثمانية نفر من السند . . . فهال الرسل أمرها . ثم أخرجوا إلى دار فيها مائة سبع ، خمسون يمنة وخمسون يسرة ، كل سبع منها فى يد سبَّاع وفى رؤوسها وأعناقها السلاسل والحديد .

ثم أخرجوا إلى دار بين بساتين فى وسطها بركة رصاص . . حواليها نهر رصاص . . أحسن من الفضة المجلوة ، طول البركة ثلاثون ذراعاً فى عشرين ذراعاً ، فيها أربع طيارات لطاف بمجالس مذهبة مزينة بالدبيق المطرز وأغشيتها دبيقى مذهب ، وحوالى هذه البركة بستان بميادين فيه نخل عدده أربعمائة نخلة ، وطول كل واحدة خمسة أذرع ، قد لبس جميعها ساجا منقوشا من أصلها إلى حد الجمارة بحاق من شبه مذهبة ، وجميع النخل حامل بغرائب البسر .

ثم أخرجوا من هذه الدار إلى دار الشجرة ، وفيها شجرة فى وسط بركة كبيرة ، مدورة فيها ماء صاف ، وللشجرة ثمانية عشر غصنا ، لكل غصن منها شاخات كثيرة عليها الطيور والعصافير من كل نوع مذهبة ومفضضة ، وأكثر قضبان الشجرة فضة ، وبعضها مذهب . وهى تتمايل فى أوقات ولها ورق مختلف الألوان متحرك كما تحرك الريح ورق الشجر ، وكل

من هذه الطيور يصفر ويهدر ، وفى جانب الدار يمنة البركة تماثيل خمسة عشر فارسا على خمسة عشر فرسا ؛ قد ألبسوا الديباج وغيره ، وفى أيديهم مطارد على رماح يدورون على خط واحد فيظن أن كل واحد منهم إلى صاحبه قاصد ، وفى الجانب الأيسر مثل ذلك .

ثم أدخلوا إلى القصر المعروف بالفردوس ، وفتحت الخزائن والآلات فيها مرتبة كما يفعل لخزائن العرائس ، وقد علقت الستور ، ونظم جوهر الخلافة فى قلايات على درج غشيت بالديباج الأسود . ثم أخرجوا منه إلى ممر طوله ثلثمائة ذراع ، قد علق من جانبيه نحو من عشرة آلاف درقة وخوذة . . . وقسى .

وقد أقيم نحو ألفى خادم بيض وسود صفين يمنة ويسرة ، ثم أخرجوا بعد أن طيف بهم ثلاثة وعشرين قصرا إلى الصحن التسعينى وفيه الغلمان بالسلاح الكامل والهيئة الرائعة . . . ثم مرروا بمصاف من علية السواد من خلفاء الحجاب الجند والرجالة وأصاغر القواد ، ودخلوا دار السلام .

وكان عدة كثيرة من الخدم والصقالبة فى سائر القصور يسقون الناس الماء المبرد بالثلج والأشربة ، ومنهم من كان يطوف

مع الرسل ، فلطول المشى بهم جلسوا واستراحوا فى سبعة مواضع ، واستسقوا الماء فسقوا » .

وفضلا عن مشاهدة سائر محتويات قصور الخلافة ركب السفراء قوارب جميلة ، صعدت بهم فى دجلة ، متجهين إلى دار صاعد التى أعدت لإقامتهم . وأتاحت لهم هذه النزهة النهرية مشاهدة معالم بغداد ، التى امتدت على ضفتى النهر فى جمال ورونق .

وعندما انتهت سفارة الإمبراطور قسطنطين من مهمتها وتم الاتفاق على تبادل الأسرى بين المسلمين والروم ، قفلت عائدة إلى القسطنطينية . ورغب الخليفة المقتدر العباسى فى إسباغ بالغ كرمه على السفراء عند عودتهم ، فبعث إلى الشخصين المشرفين على السفارة خمسين بدرة ورقا ، فى كل بدرة خمسة آلاف درهم » .

وكان المقصود من تلك الهبات هو مساعدة السفراء على شراء ما يحتاجون إليه من طرائف العاصمة والنادر من منتجات الدولة الإسلامية . وكذلك شمل الخليفة بهباته أبا عمر الطرسوسى الذى رافق سفارة الروم فى عودتها إلى ديارها .

٥

العلاقات الدبلوماسية
مع غرب أوربا

« ا » سفارة الخليفة هارون الرشـــيد
إلى الإمبراطور شرلمان

أهداف السفارة :

كان لاتساع الدولة الإسلامية فى شمال أفريقيا، واستيلاء المسلمين على بلاد الأندلس من شبه جزيرة أيبيريا أثر كبير فى خلق علاقات سياسية مع القوى الأوربية فى غرب القارة ، ولا سيما مع الفرنجة فى بلاد الغال (فرنسا) ، ومع النورمان[1] فى الجزر البريطانية . غير أن تلك العلاقات بدأت متأخرة عن علاقات المسلمين مع شرق أوربا ، بسبب افتقار غرب القارة إلى القوى السياسية العظمى إلى مطالع القرن الثامن الميلادى .

ولكن سرعان ما دب النشاط الدبلوماسى الإسلامى فى غرب

(١) انظر الفصل الأخير من هذا الكتاب .

أوربا بعد النصف الثانى من القرن الثامن الميلادى بسبب الانقلاب الذى حدث إذ ذاك فى الميزان الدولى . وكان آية هذا الانقلاب انفصال الأندلس عن الخلافة العباسية فى بغداد ، وقيام إمارة أموية إسلامية قوية هناك . ثم قامت فى نفس الوقت قوة الفرنجة فى بلاد الغال (فرنسا) ومنافستهم للروم فى شرق أوربا .

وكانت الخلافة العباسية هى باعثة النشاط الدبلوماسى الإسلامى فى غرب أوربا . إذ بعث الخليفة العباسى أبو جعفر المنصور حملة للاستيلاء على بلاد الأندلس من أيدى عبد الرحمن الأموى، الذى هرب من جيوش العباسيين فى الشام. وانتهت مجهودات أبو جعفر المنصور بالإخفاق ، حيث هزم عبد الرحمن الأموى جيوش العباسيين ، وسقط القائد العباسى نفسه قتيلا .

وأدركت الخلافة العباسية منذئذ ألا سبيل إلى القضاء التام على الإمارة الأموية بالأندلس ، وأن التطورات السياسية تقضى عليهم بالحد من شوكة هذه الإمارة ، حتى لا تمتد بها الأطماع إلى مهاجمة الممتلكات العباسية بشمال أفريقيا .

ووجد العباسيون فى الفرنجة بأرض الغال خير حليف يساعدهم على تحقيق مآربهم ، بسبب مخاوف الفرنجة من

هجمات الأمويين بالأندلس على جنوب بلاد الغال (فرنسا) .
واستهل الخليفة أبو جعفر المنصور نفسه العلاقات الدبلوماسية
مع الفرنجة ، ليكسبهم إلى جانبه ضد الأمويين بالأندلس .
فبعث هذا الخليفة إلى پبن (pepin) سيد بلاط الفرنجة
سفارة عباسية تخطب وده ، وتطلب صداقته مع الخلافة
العباسية .

وخلقت سفارة أبي جعفر المنصور مع پبن جواً من الود
بين البلاط العباسي فى بغداد وبلاط الفرنجة فى إكس لاشابل ،
دون أن تتطور العلاقات بينهما إلى تحالف حربى ضد الأمويين
بالأندلس. وحاول الخليفة المهدي بن المنصور أن يجدد العلاقات
الدبلوماسية مع الفرنجة ، بغية خلق تحالف حربى ضد الإمارة
الأموية بالأندلس ، ولكن ظلت العلاقات السياسية بين العباسيين
والفرنجة علاقة صداقة فقط .

وتجدد النشاط الدبلوماسى الإسلامى مع دولة الفرنجة فى
غرب أوربا حين ولى هارون الرشيد عرش الخلافة فى بغداد .
إذ نال هذا الخليفة من السطوة والسلطان والغنى والثراء ما جعله
يفكر فى إعادة الأندلس إلى التبعية للخلافة العباسية . واستهل
تنفيذ سياسته بالسير على التقاليد القديمة التى سبقه إليها الخليفة

أبو جعفر المنصور ، وهى كسب تحالف الفرنجة ضد الأمويين بالأندلس .

وأعد الخليفة هارون الرشيد سفارة عظيمة لهذا الغرض ، ولا سيما أن الظروف السياسية ساعدته على إيفاد تلك السفارة دون أن يكون فيها امتهان لعظمته . ذلك أن مقاليد دولة الفرنجة آلت فى ذلك الوقت إلى شخصية عرفت فى التاريخ باسم شرلمان العظيم . وتطلع هذا الإمبراطور الفرنجى الجديد إلى مزاحمة إمبراطور الروم فى السيادة على العالم المسيحى . ورأى شرلمان أن خير وسيلة تحقق له هذه الزعامة الروحية هو أن يظهر بمظهر حامى حمى الأماكن المسيحية المقدسة فى فلسطين ، والحجاج المسيحيين القاصدين إليها .

ولما كانت تلك الأماكن المقدسة المسيحية فى فلسطين تابعة للخلافة العباسية ، فقد أرسل شرلمان سفارة إلى هارون الرشيد تطلب منه عقد تحالف بين الدولة العباسية ودولة الفرنجة ، وتسليم مفاتيح بيت المقدس للإمبراطور شرلمان . فانتهز الخليفة هارون الرشيد وصول تلك السفارة الفرنجية إلى بغداد ، واستقبلها بالحفاوة والترحاب ، وأعد سفارة إسلامية تعود مع سفراء الفرنجة لتحقيق سياسته إزاء إمارة الأمويين بالأندلس .

ركب السفارة :

واستدعى الخليفة هارون الرشيد أحد خاصته ، وعهد إليه بتولى رئاسة تلك السفارة . ثم استدنى الخليفة رئيس السفاره وقال له: « إنا أتانا من ملك الفرنجة رسول يقرئنا منه السلام ويلتمس جميل رعايتنا بمن يحج إلى بيت المقدس من ملته . فرأينا أن نوجهك إليه بالطائف تروم إليه أن يتقبلها فى سبيل المودة لغاية نرغب فيها إليه من التعصب على بنى أمية الذين يمزقون الأندلس . فإذا وافقنا على ما نروم من الاستيلاء على ديارهم فهو المقصود من إنفاذك إليه فى هذه الرسالة .

واجهد فى أن تسرق قلبه بخلابة لسانك ، وتقدم إليه بالوعد الجميل فى أننا نوفيه حقه يوم الفتح ونصرف له نفقة الحرب من بيت مالنا ، ونجرى الأرزاق الواسعة على جنده . واستصحب معك هذا اليهودى الذى جاء به رسوله ، فهو يترجم عنك إليه » .

وبعد أن خرج السفير الإسلامى من دار الخلافة قصد إلى دار البرامكة ، وزراء الرشيد . وقابل السفير الوزير جعفر البرمكى يدرس معه تفاصيل تلك السفارة . فقال جعفر للسفير :

« لقد أشرت على الخليفة بالإبقاء على علاقات المودة مع شرلمان، وإرسال سفارة من أجل ذلك، ولم أكن أتوقع من الخليفة اتساع الأطماع ، واستهداف القضاء على الإمارة الأموية بالأندلس » .

ثم ذهب جعفر البرمكى إلى الخليفة هارون الرشيد ، وناقشه فى أغراض تلك السفارة ، ليثنيه عن محاربة الأمويين . ولكن الخليفة أصر على رأيه ، ولم يبق بذلك إلا إعداد السفارة .

وتولى جعفر البرمكى إعداد كتاب هارون الرشيد إلى الإمبراطور شرلمان ، وكذلك انتقاء الهدايا التى تساعد على جلب المودة ، وكان من بين الهدايا فيل عظيم أبيض كان أحد ملوك الهند قد بعث به إلى المهدى والد الرشيد ، وكذلك أقمشة فاخرة من الوشى المنسوج بالذهب ، وبسط ديباج من طبرستان وعطور من اليمن والحجاز ، ومسك وصندل وأعواد ندّ من الهند ، وسرادق عظيم مجلل بأنواع الحرير وكلاليبه من الذهب ، ومزولة كبيرة تدل على الأوقات ، قام مهرة عمال بغداد بصناعتها .

وكان فى الهدايا أيضاً شطرنج بديع الحسن قد اتخذت أدواته من العاج المنقوش ، صنعه نقاش من مشاهير صناع

بغداد اسمه يوسف الباهلي . وقد مثلت تلك الأدوات فيلا يلف خرطومه على فارس ، وعلى رأسه جندى قد أخذ بزمامه ومن جونه ثمانية فرسان يراد بهم الرمز إلى البيادق الثمانية الذين يناضلون عن الشاه .

« وقد أظهر الرسام فى تصويره من الحذق ما يستحق الثناء ، لأنه مثل أصحاب الفيلة كما هم ، وجعل فى آذانهم أقراطاً وعلى زنودهم أساور وعلى أبدانهم القراطق وهى لباس الهنود ، واتخذ عدة الخيل مزخرفة ، وصنع لها السروج والأزمّة والركائب ، وقلد الفرسان شيئاً من السلاح » .

وخرجت السفارة من بغداد فى طريقها إلى ميناء بيروت . وهناك انتظرت بعض الوقت حتى وصلت الهدايا ومعها الخدم . ثم أبحرت إلى بلاد الغال ، حيث وصلت ميناء مرسيلية بعد رحلة استغرقت عشرين يوماً . وشاهدت السفارة مظاهر الترحيب منذ وصلت إلى مرسيلية . ذلك أن حاكم تلك المدينة خرج لاستقبالها فى أحسن عدة ، وأبهى زينة . ولكن سرعان ما علمت السفارة أن الإمبراطور شرلمان ليس فى عاصمته ، وإنما هو فى روما ، يدرس مسائل خاصة مع البابا هناك .

وآثر السفير عدم البقاء طويلا فى مرسيلية ، وإنما فضل

الذهاب إلى روما ليتم مفاوضاته مع الإمبراطور شرلمان بأسرع ما يمكن. فبعث حاكم مرسيلية رسولا مع السفارة الإسلامية حتى وصلت إلى روما . ولما بلغ شرلمان خبر قدوم سفارة الرشيد ، بعث بوفد من علية القوم لاستقبالها . وكان الإمبراطور مقيما فى أحد قصور روما العظيمة .

واستقبل شرلمان السفارة وأعضاءها وهو جالس على منصة مجللة بالذهب وعلى رأسه تاج مرصع باللؤلؤ والياقوت ، وفى يده قضيب الملك وبين يديه حرس قد وقفوا بالسيوف المشهرة والحراب .

وأبلغ السفير المسلم رسالة هارون الرشيد إلى شرلمان ، الذى تقبلها بالشكر والثناء . ثم استعرض شرلمان الهدايا التى حملتها السفارة الإسلامية ، مما زاد فى ابتهاجه وسروره .

وانتهت المقابلة الرسمية وما صحبها من عبارات التحية والمودة . ثم طلب السفير المسلم بعد ذلك مقابلة شرلمان على انفراد ليحدثه فى أمر المحالفة مع الخلافة العباسية ضد إمارة بنى أمية بالأندلس. ولكن المفاوضات التى دارت بين شرلمان والسفارة الإسلامية لم تسفر عن شىء جديد ، حيث أظهر شرلمان عدم استعداده لخوض حرب لا يعرف نتائجها ضد الأمويين بالأندلس .

وبذلك لم تحقق سفارة هارون الرشيد إلى الإمبراطور شرلمان شيئاً غير استمرار العلاقات الودية بين الخلافة العباسية ودولة الفرنجة ، وهو أمر يعد وحده دليلا قاطعاً على سعة النشاط الدبلوماسى الإسلامى ، وأنه استهدف أغراضاً لا تختلف عن الأغراض التى نشاهدها اليوم من حيث عقد المحالفات والمعاهدات .

ثم إن تلك السفارة وجهت أنظار القوى الأخرى مثل دولة الروم إلى إمارة الأمويين بالأندلس ، لتحافظ على التوازن الدولى ، الذى كاد أن ينقلب بسبب العلاقات الدبلوماسية بين العباسيين والفرنجة .

« ب » سفارة إمبراطور الروم
إلى الأندلس

بلاط قرطبة :

كان لاتصال الفرنجة بالعباسيين فى بغداد ، وتقوية أواصر المودة بينهما رد فعل عند الروم ، الذين خشوا ازدياد نفوذ الفرنجة فى العالم المسيحى ، واستئثارهم بمركز الزعامه من دونهم ، ولاسيما بعد أن بعث الخليفة هارون الرشيد إلى شرلمان إمبراطور الفرنجة بمفاتيح كنيسة القيامة ببيت المقدس . وكان من الطبعى أن يتجه الروم إلى إمارة الأمويين بالأندلس ، لأنها بدورها خشيت التحالف القائم بين العباسيين والفرنجة .

وأدى اتفاق المصالح بين الروم والأمويين بالأندلس إلى ازدياد النشاط الدبلوماسى الإسلامى فى غرب أوربا ، حيث جاءت السفارات من القسطنطينية النائية إلى قرطبة حاضرة الأندلس . وبلغت العلاقات السياسية أوج عزها بين هاتين العاصمتين فى عهد الإمبراطور قسطنطين السابع والخليفة الأموى عبد الرحمن الناصر .

وجهدت السلطات الإسلامية بالأندلس على تزيين العاصمة « قرطبة » وتجميلها ، وتحسين البلاط فيها حتى تضارع بغداد عاصمة العباسيين ، وتكون جديرة باستقبال سفراء الروم . فكثرت فى قرطبة الحدائق الغناء والمساجد الكبيرة والمنازل الواسعة ، وكذلك الحمامات العامة التى خصصت لرفاهية السكان . وكان يتوج هذه المظاهر من العمران قصور الخلفاء وما حفلت به من البساتين والتحف والخدم والحشم . فكان قصر الزهراء فى قرطبة آية من الفن المعمارى ، وعنواناً على الرخاء الذى شاهدته بلاد الأندلس فى عهد الأمويين . وقام إلى جانب هذا القصر قصر آخر هو قصر قرطبة ، كان مركز المقابلات الرسمية ، والمقر الرسمى للخليفة .

وشاهدت قرطبة أزهى عصورها فى عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر ، الذى كان ملكه « فى غاية الضخامة ورفعة الشأن ، وهادته الروم وازدلفت إليه تطلب مهادنته ومتاحفته بعظيم الذخائر . ولم تبق أمة سمعت به من ملوك الروم والإفرنج والمجوس وسائر الأمم إلا وفدت عليه خاضعة راغبة ، وانصرفت عنه راضية . من جملتهم صاحب القسطنطينية العظمى ، فإنه هاداه ورغب فى موادعته » .

سفراء الروم :

وفى صفر سنة ٣٣٨ هـ / ٩٤٩ م وصلت سفارة الإمبراطور قسطنطين السابع إلى بجاية ميناء الأندلس ، وأعظم ثغورها على البحر الأبيض المتوسط . وأمر الخليفة عبد الرحمن الناصر باستقبال تلك السفارة استقبالا حافلا ، رغبة منه فى إظهار عظمة ملكه وأبهة سلطانه . وكان فى استقبال سفراء الروم فى الميناء أحد قادة الأندلس العظام، وهو يحيى بن محمد بن الليث ، الذى عهد إليه بمرافقة رجال السفارة أثناء انتقالهم من الميناء إلى العاصمة .

وعندما اقترب ركب السفراء من قرطبة خرج لاستقبالهم قادة الدولة على اختلاف مراتبهم ، ومعهم كامل العدة والعتاد . وكان العرض العسكرى الإسلامى رهيبا ، حيث تلقى السفراء القائد المسلم تلو القائد حتى تلقاهم أخيراً أعظم قائدين فى الدولة وهما ياسر وتمام ، « وهما أصحاب الخلوة مع الناصر وبيدهم القصر السلطانى » .

وفى قرطبة أعد للسفراء قصر خاص فى أحد الأحياء الجميلة ، وأحيط بحراسة شديدة ، منعت اقتراب الناس منهم سواء أكانوا

من العامة أم من الخاصة ، وتوفر على خدمة السفراء فى القصر ستة عشر رجلا ممن حذقوا أساليب الترحيب وفن الضيافة . وقضى السفراء نحو شهر فى ذلك القصر حتى حان موعد المقابلة الرسمية .

حفل الاستقبال :

ورغب الخليفة عبد الرحمن الناصر فى أن يكون استقبال السفراء فى قصره أعظم من استقبالهم عند وصولهم إلى الأندلس، فانتقل من قصر الزهراء إلى قصر قرطبة، وهو المقر الرسمى للمقابلات. وجلس الخليفة فى قاعة الاستقبال يحف به رجال بيته وكبار موظفى الدولة وعلمائها وأدبائها . فكان على يمينه ولى عهده الحكم ، يليه عبد الله أخو الحكم ، وهو من عظماء الأندلس فى الفقه والشعر ، وعن يساره جلس ابنه المنذر ثم عبد الجبار ..

ووقف وراء الخليفة وأبنائه الوزراء على اختلاف مراتبهم يميناً وشمالا ، كما وقف رجال القصر من أهل الخدمة . وكان منظر القصر فى غاية الروعة بسبب البسط الكثيرة التى غطت أرض الحجرات والستائر الجميلة التى علقت على الأبواب والنوافذ ، كما تناثرت فى أرجاء القصر المظلات التى تحمى الجالسين من وهج الشمس .

وعندما دخل سفراء الروم وقفوا حائرين مما رأوه من بهجة الملك وفخامة السلطان . ثم تقدموا إلى حضرة الخليفة ، وسلموه كتاب الإمبراطور قسطنطين ، وكان يحوى تعريفاً بالسفراء وبياناً بالهدية التى يحملونها . وكان الكتاب موضوعاً داخل جلد رقيق مصبوغ بلون سماوى والكتابة عليه بالخط الإغريقى المذهب . وكان على الكتاب طابع ذهب وزنه أربعة مثاقيل ، على الوجه الواحد منه صورة المسيح وعلى الآخر صورة قسطنطين وصورة ولده .

وبعد أن قرأ الخليفة كتاب إمبراطور الروم واستعرض الهدايا ، أمر ابنه الحكم بأن يقدم الخطباء ليشيدوا بعظمة دولة المسلمين بالأندلس وبحكم الخليفة العطر الذكر . وقد استولت الرهبة على أول الخطباء وهو الفقيه محمد بن عبد البر ، ولم يستطع التكلم على الإطلاق بسبب ضخامة الاحتفال وجلال الموقف . وكان هذا الفقيه « يدعى من القدرة على تأليف الكلام ما ليس فى وسع غيره . . . فلما قام يحاول التكلم بما رأى هاله وبهره هول المقام وأبهة الخلافة ، فلم يهتد إلى لفظه ، بل غُشى عليه وسقط إلى الأرض » .

ولم ينقذ الموقف غير منذر بن سعيد أحد الفقهاء ممن حضر

حفل الاستقبال . إذ نهض واقفاً ، وارتجل خطبة قيمة أشاد فيها بالخليفة عبد الرحمن الناصر ، وما ساد البلاد على عهده من الرخاء والطمأنينة ، وأنها غدت محط أنظار الوفود والسفراء من أقاصى البلاد .

وجاء فى هذا الخطاب السياسى الرائع ما يلى : « أما بعد حمد الله والثناء عليه . . . فإن لكل مقام مقالا . . . وإنى قد قمت فى مقام كريم ، بين يدى ملك عظيم ، فأصغوا إلىَّ معشر الملأ بأسماعكم . . . إنى أذكركم بأيام الله عندكم ، وتلافيه لكم بخلافة أمير المؤمنين التى لمت شعثكم . . . حتى توافرت لديكم الفتوحات ، وفتح الله عليكم بخلافته أبواب الخيرات والبركات ، وصارت وفود الروم وافدة عليه وعليكم ، وآمال الأقصين والأدنين مستخدمة إليه وإليكم ، يأتون من كل فج عميق ، وبلد سحيق ، لأخذ حبل بينه وبينكم جملة وتفصيلا ، ليقضى الله أمراً كان مفعولا ، ولن يخلف الله وعده» .

وانتهى بذلك هذا الحفل الرائع الذى بلغ من الرهبة حداً عجزت معه ألسنة فصحاء الخطباء عن القول ، وعاد السفراء ، إلى القسطنطينية يشيدون بعظمة دولة المسلمين فى الأندلس ، وما وصلت إليه من قوة وجلال .

« ج » سفارة يحيى بن حكم الغــزال
إلى الجزر البريطانية

غارات النورمان على الأندلس :

لم تقتصر علاقات المسلمين السياسية بغرب أوربا على بلاد الغال « أرض فرنسا » فحسب ، وإنما امتد النشاط الدبلوماسى الإسلامى كذلك فى تلك الفترة المبكرة من العصور الوسطى إلى الجزر البريطانية ، التى كانت تتجمع فيها إذ ذاك العناصر التى دفعت بها إلى مسرح القوى الكبرى . وكان السبب فى ميلاد تلك القوة الجديدة هو التطورات الاقتصادية التى طرأت على شمال أوربا ، حيث سادها الجدب والفقر ، واندفع سكانها على جيرانهم جنوباً يبحثون عندهم عن لقمة العيش وتلمس أسباب الحياة .

وعرف هؤلاء الناس الذين اندفعوا من شمال أوربا عند جيرانهم باسم الشماليين أو النورمان ، وهى تسمية جغرافية محضة بسبب انطلاق جحافلهم من الجهات الشمالية . وجرت هجمات الشماليين أو النورمان أول الأمر على غير هدى ، إذ استهدفت

جماعاتها القيام بإغارات سريعة ، يستولون فيها على كل ما تقع عليه أيديهم من مأكل وغيره ، ثم العودة إلى بلادهم .

وأحدثت تلك الهجمات المفاجئة الذعر فى النفوس، ولا سيما أن شدة الجوع دفعت النورمان إلى القسوة والتخريب . فهرب كثير من سكان بلاد غرب أوربا إلى داخل المدن ، مبتعدين عن الشواطىء . ولكن جماعات النورمان لم تلبث أن عدلت نظام إغاراتها ، إذ عمدت إلى اتخاذ بعض الجزر الصغيرة الواقعة قرب مصاب أنهار غرب أوربا مقرًّا لها ، تغير منها على الأراضى المجاورة ثم تعود إلى تلك الجزر بدلا من الذهاب إلى أوطانهم فى شمال أوربا .

وأدى هذا التطور الجديد فى إغارات النورمان إلى استيلائهم على الجزر البريطانية ، وغيرها من الجزر المبعثرة على امتداد ساحل أوربا الغربى . وكانت نتيجة هذه الظاهرة كذلك هو ابتعاد النورمان عن التخريب فى إغاراتهم ، ومحاولتهم اقتحام المدن ، وسلب ما بها من كنوز نفيسة وتحف تساعدهم على الحياة والعيش فى رغد . ومن ثم لم تعد إغارات النورمان تقتصر على المدن الساحلية الخاوية ، وإنما امتدت إلى المدن الداخلية القاصية ، مثل باريس وغيرها من جهات غرب أوربا .

وفى هذا الدور الجديد من نشاط النورمان ، وصلت إغاراتهم إلى بلاد الأندلس الخاضعة إذ ذاك لحكم الأمويين ، الذين سبق أن فروا من مذابح العباسيين فى الشام . ولم تلبث بلاد الأندلس أن صارت خاصة هدفاً ثميناً لإغارات النورمان بسبب ازدهارها تحت الحكم الأموى، وثراء مدنها وكثرة القصور ومظاهر العمران فيها .

وساعد النورمان على الهجوم على بلاد الأندلس كثرة الأنهار فيها مما حملهم على التوغل فى الداخل عن طريقها جرياً على عاداتهم فى الإغارات . فكان فى مدخل الوادى الكبير الذى تقع عليه قرطبة جزيرتان صغيرتان ، اتخذهما النورمان مقرًّا لهما فى الهجوم على المدن الواقعة على ضفتى هذا النهر . وكان أول هجوم للنورمان على بلاد الأندلس سنة ٨٤٤ م — ٢٣٠ ﻫ ، واتخذ طابعاً مفاجئاً جعل المسلمين لا يعرفون عنهم شيئاً ، أو عن مقرهم الأصلى .

وأطلق المسلمون على النورمان منذئذ اسم المجوس ، وهى تسمية تطلق على من يعبد النار فى نظر المسلمين ، وذلك لأن النورمان كانوا إذ ذاك وثنيين لم يعتنقوا المسيحية بعد ، ويشعلون النار فى كل مكان ينزلون به . وكانت سفن النورمان خفيفة ،

لها أشرعة سود لتساعدهم على التقدم فى البحر إلى داخل الأنهار .

واستهل النورمان إغاراتهم على مدن نهر الوادى الكبير بعد استيلائهم على الجزيرتين الواقعتين عند المصب . ويبدو أن أشبيلية وقادش وقرطبة كانت أهداف النورمان بسبب ما اشتهرت به تلك المدن من غنى وثراء . واتجهت شعبة من جماعات النورمان إلى أشبيلية ، حيث اخترقت المدينة ، وانتشرت سفنهم بأشرعتها السود فى مجرى النهر .

وحاول أهل أشبيلية تنظيم مقاومة ، فأرسلوا بضع مراكب لتلقى سفن النورمان وتوقف تقدمها . فاستقبل النورمان سفن المسلمين بوابل من الأسهم النارية ، أشعلت النار فى أشرعة سفن المسلمين ، وحملتهم على الهرب من المدينة . وعلى أثر ذلك انتشر النورمان فى ضواحى أشبيلية ونهبوها ، وحملوا معهم كثيراً من الغنائم والأسرى ، ووضعوها فى السفن فى انتظار عودة باقى المغيرين .

وكانت شعبتان من جماعات النورمان قد تركتا أشبيلية لمهاجمة قادش وقرطبة . وبينما أخذت جماعات النورمان تخرب قادش على نحو ما فعلت بأشبيلية ، عجزت الشعبة الثالثة عن

مهاجمة قرطبة وهى العاصمة بسبب شدة التيار فى النهر . ويبدو أن هدف الشعبة الثالثة كان صرف أنظار المسلمين عن أعمال الجماعات النورمانية فى أشبيلية وقادش ، وذلك بالتظاهر بمهاجمة قرطبة العاصمة ، وحمل المسلمين على تجميع قواتهم للدفاع عن العاصمة .

ولكن بينما يجمع النورمان غنائمهم ، ويحملونها على ظهور سفنهم ، كانت السلطات الإسلامية فى قرطبة قد جمعت قواتها على عجل ، وبعثت بها لمهاجمة النورمان . ورأى قادة المسلمين أن خير وسيلة لمقاومة النورمان وإفساد إغارتهم السالفة الذكر هو وضع المجانيق على ضفتى النهر ، لترجم سفن النورمان بالحجارة وهى فى طريقها إلى العودة ، محملة بالغنائم .

ونجحت خطة القوات الإسلامية ، حيث حطمت ثلاثين مركباً من سفن النورمان أثناء عودتها من أشبيلية ، على حين اضطر بعضهم إلى الهرب من السفن والنزول إلى الشاطئ ، حيث لقى مصرعه على أيدى المسلمين . وعلى أثر هذه الهزيمة شدد المسلمون هجومهم ، حتى طلب النورمان وقف القتال قائلين للمسلمين : « إن أحببتم الفداء فكفوا عنا » وقبل المسلمون هذا النداء وجرى بين الفريقين تبادل الأسرى . ولما كان فى يد النورمان كثير من

أسرى المسلمين فقد أخذوا مقابل الفداء « الثياب والمأكول ، ولم يأخذوا فى فدائهم ذهباً ولا فضة » .

واستغرقت تلك الإغارة النورمانية المفاجئة شهرين، وكادت تزعزع أركان المسلمين فى الأندلس ، على نحو ما فعلت جماعات النورمان الأخرى فى هجومها على بلاد الغال (فرنسا) والجزر البريطانية . غير أن السلطات الإسلامية بالأندلس أثبتت أنها تمثل دولة إسلامية قوية الأوتاد ، لها نظمها واستعدادها الحربى المتين . فلم يستطع النورمان تحقيق أى نصر منذ غارتهم الأولى على بلاد الأندلس ، واضطروا إلى احترام قوة المسلمين فى هذا الشطر الغربى من أرض أوربا .

على أن الأمر الهام الذى تمخضت عنه تلك الإغارة هو ازدياد نشاط الدبلوماسية الإسلامية ، وامتدادها إلى الجزر البريطانية التى صارت مركز النورمان الذين قاموا بتلك الإغارة المفاجئة على بلاد الأندلس . إذ تطلع المسلمون إلى معرفة طبيعة تلك الجماعات الجديدة التى غدت تكون خطراً على أراضيهم ، واستطاعت السلطات الأندلسية بفضل وسائلها الدبلوماسية معرفة الشىء الكثير عن موطن النورمان وفهم طبيعة حركاتهم الحربية .

سفارة الغزال :

أدرك ملك النورمان بعد تلك الإغارة أنه قد اصطدم بقوة جديدة تختلف عن سائر قوى غرب أوربا ، وأن المسلمين لا بد أنهم سينتقمون لما أصابهم انتقاماً شديداً . وكان ملك النورمان اسمه توريجايوس ، ويقيم فى شمال إيرلندا ، التى غدت إذ ذاك مقر النورمان الذين سيطروا على سائر الجزر البريطانية ، التى انطلقت منها أولى إغاراتهم على المسلمين بالأندلس . ولذا أرسل توريجايوس سفارة إلى أمير الأندلس عبد الرحمن الأوسط عقب إخفاق إغارة النورمان على أشبيلية يطلب الصلح والمهادنة .

ورحب الأمير عبد الرحمن برسل ملك النورمان ، لأن الأندلس لقى من غاراتهم بلاء شديداً ، ورأى فى اتصالهم به سبيلا لمعرفة أمورهم وفهماً لمدى قوتهم . ثم إن الأمير عبد الرحمن رغب فى مصادقة تلك القوة الجديدة ليستعين بها ضد دولة الفرنجة ببلاد الغال (فرنسا) ، وهى القوة التى اتصلت بها الخلافة العباسية المناهضة للإمارة الأموية بالأندلس . ومما شجع الأمير عبد الرحمن على المبادرة بالاتصال بملك النورمان محاولة الفرنجة إثارة الفتن فى إسبانيا وخلق المتاعب

للمسلمين هناك ، إذ وجد الأمير عبد الرحمن فى قوة النورمان وهجومهم على بلاد الغال موطن الفرنجة سبيلا لصرف الخطر الجديد عن بلاده .

وأعد الأمير عبد الرحمن سفارة تعود مع سفارة النورمان لعقد الصلح وإنهاء الحرب بين الفريقين . وانتدب لسفارته رجلا ذكياً حاضر البديهة لطيف المدخل ، قد توافرت له الكثير من صفات السفراء التى حرصت عليها قواعد اللياقة الإسلامية . وكان هذا السفير هو يحيى الغزال الذى اشتهر بأنه « حكيم الأندلس وشاعرها » .

وكان الغزال ذا نسب رفيع « يرتفع إلى بنى بكر بن وائل ، أى أنه كان من أبناء البيوت العربية الأصيلة » . وكانت الدولة الإسلامية تهتم اهتماماً كبيراً بأن يكون سفراؤها من أصحاب الأصل العريق ليكسبوا سفاراتهم المهابة والجلال . وفضلا عن ذلك اتصف الغزال بأنه ذو جمال ظاهر ، حتى إن الناس لقبوه بالغزال . فكان إلى جمال وجهه رجلا طويلا عريضاً ظاهر الصحة ، كثير النشاط .

واشتهر الغزال إلى جانب الصفات السالفة بأنه شاعر قدير ، خفيف الروح ، جرت أشعاره على ألسنة معاصريه ،

وبلغت مقدرة الغزال فى الشعر أنه ألف تاريخاً لأمراء الأندلس إلى عهده شعراً . وبذلك كان الغزال يتمتع بالعلم الواسع والقدرة على قرض الشعر ، وذلك فضلا عن مواهبه الخلقية . إذ اشتهر بالنزاهة فى سائر الوظائف التى تقلدها ، وغدا يحمل من الصفات ما يجعله خير مرشح للسفارة إلى الملوك .

وفى أواخر صيف ٨٤٥ م / أوائل سنة ٢٣١ ه كان الأمير عبد الرحمن قد أعد مركباً حسن المنظر ، كامل العدة ، حمله بالهدايا الطيبة لملك النورمان . وأخذ الغزال خطاباً من الأمير عبد الرحمن به تعريف بشخصيته ، وذكر لأغراض سفارته ، ثم اصطحب معه مساعداً له يسمى يحيى بن حبيب ، وركب فى سفينته التى أبحرت مع رسل النورمان فى سفينتهم قاصدين مقر ملك النورمان فى إيرلندا .

وبعد أن غادر الغزال أرض إسبانيا ودخل بحر المانش هاج ذلك البحر وتلاطمت أمواجه . ذلك أن تلك الفترة كانت فى شهر سبتمبر ، وهو شهر تتعالى فيه أمواجه وتكثر أخطاره . وقاسى الغزال كثيراً من دوار البحر ، واستولى الفزع على صحبه بسبب اشتداد العواصف . وسجل الغزال عبور المانش قائلا :

قال لى يحيى وصرنـــا بين موج كالجبال
وتــولتنـــا ريـــاح من دبـــور وشمـــال
شقت القلعـــين وانبـ ـتّت عرى تلك الحبال
وتمـــطى ملك الموت إلينا عن حيـــال
فرأينا الموت رأى الـ ـعين حالا بعد حـــال
لم يكن للقـــوم فينـــا يا رفيقى رأس مـــال

وبعد تلك الرحلة البحرية الشاقة وصلت سفينة الغزال وسفينة النورمان إلى إحدى الجزر الصغيرة القريبة من إيرلندا . فأقاموا فيها أياما ، وأصلحوا مراكبهم وأجموا أنفسهم . ثم تقدمت سفينة النورمان إلى مقر الملك لتخبره بوصول سفارة المسلمين . وقد سر الملك سروراً عظيما بمقدم تلك السفارة وأذن للسفينة التى تقل الغزال بأن تلقى مرساها فى جزيرته .

ووصف الغزال تلك الجزيرة بأنها « عظيمة فى البحر المحيط ، فيها مياه مطردة وجنات ، وبينها وبين البر ثلاثة مجار ، وهى ثلثمائة ميل ، وفيها من المجوس ما لا يحصى عددهم ، وتقرب من تلك الجزيرة جزائر كثيرة منها صغار وكبار ، وأهلها كلهم مجوس ، وما يليهم من البر أيضاً لهم مسيرة أيام ، وهم مجوس ، وهم اليوم على دين النصرانية ، وقد تركوا عبادة النار ،

ودينهم الذى كانوا عليه ، ورجعوا نصارى إلا أهل جزائر متقطعة لهم فى البحر ، هم على دينهم الأول من عبادة النار ، ونكاح الأخت والأم وغير ذلك من الشنار ، وهؤلاء يقاتلونهم ويسبونهم » .

وهذا الوصف الصادق عن حياة النورمان قد أكدته الدراسات التاريخية عن حياتهم . ذلك أن الفترة التى زار فيها الغزال إيرلندا كانت فترة انتشار المسيحية بين النورمان ، ومحاولة أولئك الذين اعتنقوا المسيحية هداية إخوانهم الذين ظلوا على عبادتهم الوثنية الأولى .

وما كادت سفينة الغزال تلقى مرساها حتى أخرج ملك النورمان إليهم من يلقاهم بالترحاب . وقد استبدت الرهبة بالنورمان من عظمة السفارة الإسلامية وأعجبوا إعجاباً شديداً بالزى العربى وفخامته . ثم نزلت السفارة فى إحدى دور الضيافة ، وأحاطتهم السلطات النورمانية بكل تكريم وحفاوة .

دبلوماسية الغزال :

وبعد يومين من وصول السفارة الإسلامية استدعى ملك النورمان الغزال لمقابلته رسمياً . فاشترط الغزال أولا ألا يطلب

منهم الملك شيئاً يخرجهم عن تقاليدهم العربية أو يتنافى مع تعاليم دينهم ، كألا يسجد الغزال للملك . فأجاب ملك النورمان الغزال وصحبه إلى ما طلبوه وجلس فى قاعة الاستقبال فى أبهى زينته .

ولكن أساليب السياسة التى اشتهر بها البريطانيون فيما بعد قد أخذت تكشف عن نفسها فى تلك الفترة المبكرة من تاريخهم السياسى . ذلك أن ملك النورمان أراد أن يحتال على السفير الإسلامى ويحمله على السجود له دون أن يشعر بالخدعة المبيتة . فأمر الملك « بالمدخل الذى يفضى إليه فضيق ، حتى لا يدخل عليه أحد إلا راكعاً » .

غير أن السفير الإسلامى أدرك فى سرعة خاطفة وفى لباقة تلك الحيلة . فلما وصل إلى باب قاعة الاستقبال جلس إلى الأرض ، وقدم رجليه وزحف على إليته زحفاً ، فلما جاز الباب استوى واقفا ، والملك قد أعد له واحتفل فى السلاح والزينة الكاملة ، فما هاله ذلك ولا ذعره ، بل قام ماثلا بين يديه فقال : « السلام عليك أيها الملك وعلى من ضمه مشهدك والتحية الكريمة لك ، ولا زلت تمتع بالعز والبقاء والكرامة ، المفضية بك إلى شرف الدنيا والآخرة المتصلة بالدوام فى جوار الحى القيوم » .

ولما فسر الترجمان للملك ما قاله الغزال ، أعجب بالكلام وقال : « هذا حكيم من حكماء القوم وداهية من دهاتهم ، لقد أردنا أن نذله فقابل وجوهنا بنعليه ، ولولا أنه رسول لأنكرنا ذلك عليه » . ثم قدم الغزال إلى ملك النورمان كتاب الأمير عبد الرحمن أو أوراق الاعتماد .

ولما قرأ المترجم كتاب الأمير عبد الرحمن استحسنه الملك وأخذه في يده ورفعه ثم وضعه في حجره ، وأمر بالهدية ففتحت ، ووقف على جميع ما اشتملت عليه من الثياب والأواني . وأعجب الملك بتلك الهدية ، وأظهر استحسانه بها . وعندما انتهت المقابلة الرسمية انصرفت السفارة الإسلامية إلى دار الضيافة مرة أخرى .

وفي أثناء المفاوضات التي دارت بين الغزال والسلطات النورمانية أظهر السفير المسلم من اللباقة والحجة وسعة العلم ما أثار إعجاب النورمان . ثم إنه ناقش علماءهم وغلبهم ونازل شجعانهم وهزمهم . وأثبت الغزال أنه يجيد كثيراً من فنون الرياضة التي تجعله شخصية اجتماعية من الطراز الأول .

مقابلة الملكة :

ولما سمعت زوجة الملك بذكر الغزال وما اشتهر به من خصال

بعثت تطلب حضوره إليها . وبرهن الغزال فى تلك المناسبة أنه يجيد أساليب الدبلوماسية التى لا تخفى على السفراء فى الوقت الحاضر ، وهو ضرورة التقرب من الشخصيات الكبيرة فى الدولة ، ولا سيا عظيات النساء فيها لتسهيل مهامهم السياسية .

ولما دخل الغزال على مجلس الملكة سلم عليها ثم شخص فيها طويلا ، ينظرها نظرة المتعجب ، مما أدى إلى ذلك الحوار بينهما :

قالت الملكة لترجمانها : « سل السفير عن إدمان نظره ، لماذا هو : ألفرط استحسان أم لضد ذلك ؟ »

فقال الغزال : « ما هو إلا أنى لم أتوهم أن فى العالم منظراً مثل هذا . وقد رأيت عند ملكنا نساء انتخبن له من جميع الأمم ، فلم أر فيهن حسناً يشبه هذا » .

فقالت الملكة لترجمانها : « سله ، أمجد هو أم هازل؟ »

فقال الغزال : « لا ، بل مجد ! »

فقالت الملكة : « فليس فى بلدهم جمال »؟!

فقال الغزال : « فاعرضوا على من نسائكم حتى أقيسها بها » .

فوجهت الملكة فى طلب نساء معلومات بالجمال ، فحضرن ،

فنظر إليهن الغزال طويلا ثم قال : « فيهن جمال ، وليس كجمال الملكة ، لأن الحسن الذى لها والصفات المناسبة ، ليس يميزها كل واحد ، وإنما يعنى به الشعراء . وإن أحبت الملكة أن أصف حسنها وحسبها وعقلها فى شعر يروى فى جميع بلادنا فعلت » .

وقد سرت الملكة سروراً عظيما بلباقة الغزال وحسن حديثه ، وأخذها الزهو بما سمعت منه ، ثم أمرت له بهدية . فامتنع الغزال عن أخذها وقال : « لا أفعل » . فقالت الملكة للترجمان : « سله ، لم لا يقبل صلتى ؟ ألأنه حقرنى ؟ »

فقال الغزال : « إن صلة الملكة لجزيلة ، وإن الأخذ منها لتشرُّف ، لأنها ملكة بنت ملك ، ولكن كفانى من الصلة نظرى إليها وإقبالها علىّ ، فحسبى بذلك صلة . وإنما أريد أن تصلنى بالوصول إليها أبدا » . وأثبت الغزال بذلك لباقة تامة ، لأنه يريد أن يكون على صلة دائمة بالملكة ليعرف الكثير والمزيد عن أحوال النورمان . وقد نجح فى ذلك لأن الترجمان حين فسر للملكة قول الغزال سرت سروراً عظيما ، وقالت : « تحمل صلته إليه ، ومتى أحب أن يأتينى زائراً فلا يحجب ، وله عندى من الكرامة والرحب والسعة » .

« وأولعت زوجة ملك المجوس (النورمان) بالغزال ، فكانت لا تصبر عنه يوماً حتى توجه إليه فيه ، ويقيم عندها يحدثها بسير الإسلام وأخبارهم وبلادهم ، وبمن يجاورهم من الأمم . فقلما انصرف يوماً قط من عندها إلا أتبعته هدية تلطفه بها ، من ثياب أو طعام أو طيب ، حتى شاع خبرها معه ، وأنكره أصحاب الغزال وحذروه من هذه المقابلات » .

واتعظ الغزال بقول صاحبه ، وامتنع عن زيارة الملكة ، فأرسلت تطلبه ، وسألته عن سبب غيابه ، فقال لها ما حذر منه ، فضحكت الملكة وقالت له : « ليس فى ديننا نحن هذا ، ولا عندنا غيرة ، ولا نساؤنا مع رجالنا إلا باختيارهن ، تقيم المرأة معه ما أحبت ، وتفارقه إذا كرهت . وأما عادتنا قبل أن تصل إلينا المسيحية ، فهى ألا يمتنع أحد من النساء على أحد من الرجال ، إلا أن يصحب الشريفة الوضيع فتعير بذلك ، ويحجره عليها أهلها » .

ولما سمع الغزال ذلك من الملكة زالت عنه هواجسه ومخاوفه ، وتابع زياراته لها ، لأن ذلك لا يحمل خروجاً على تقاليد النورمان . وتعتبر سفارة الغزال بذلك مصدراً هاما عن حياة النورمان الاجتماعية ، ولا سيما أن الأبحاث الحديثة أثبتت صدق

مشاهداته فى بلاط النورمان .

وفى إحدى زيارات الغزال للملكة سألته عن سنه ، وكان إذ ذاك قد جاوز الخمسين من عمره، وبرغم ظهور المشيب فى شعر رأسه إلا أنه كان حسن الصورة ، جميل المنظر. وكان الغزال قد تبسط إذ ذاك مع الملكة وعرف اسمها وهو « نود » فقال الغزال مداعباً « سنى عشرون سنة ! » فقالت الملكة للترجمان : « ومن هو ابن عشرين سنة يكون به هذا الشيب ؟ »

فقال الغزال للترجمان : « وما تنكر الملكة من هذا ؟ ألم تر قط مهراً ينتج وهو أشهب ؟ » فضحكت الملكة نود، وأعجبت من قول الغزال ، الذى سجل دعاباته شعراً ، قائلا :

قالت : أرى فوديه قد نوّرا   دعابة توجب أن أدعبا
قلت لها : يا بأبى إنــه   قد ينتج المهر كذا أشهبا
فاستضحكت عجباً بقولى لها   وإنما قلت لكى تعجبا

ولم تقف دعابات الغزال مع الملكة عند هذا الحد ، وإنما طلبت منه أن يصبغ شعره ، مستخدماً الخضاب . ففعل الغزال ذلك وغدا عليها يوماً ثانياً وقد اختضب ، فمدحت خضابه ، وأظهرت استحسانها له . وقال الغزال فى ذلك :

بكرت تحسن لى سواد خضابى
فكأن ذاك أعادنى لشبابى
ما الشيب عندى والخضاب لواصف
إلا كشمس جللت بضباب
تخفى قليلا ثم يقشعها الصبا
فيصير ما سترت به لذهاب
لا تنكرى وضح المشيب فإنما
هو زهرة الأفهام والألباب
فلدى ما تهوين من شأن الصبا
وطلاوة الأخلاق والآداب

واستغرقت سفارة الغزال شهرين عاد بعدها إلى قرطبة ، حيث عرض على الأمير عبد الرحمن ما وصل إليه من نتائج . وتعتبر تلك السفارة ذات أهمية عظمى فى ميدان الدبلوماسية الإسلامية . إذ استطاع الغزال أثناء إقامته فى بلاد النورمان ، واتصاله بأهلها نساء ورجالا أن يعرف طبيعة حياة أولئك الناس ، ولون معيشتهم . وترتب على التقرير الذى قدمه الغزال نشأة البحرية الأندلسية فى بحر الشمال . إذ أدركت السلطات الأندلسية بعد دراسة تقرير الغزال ضرورة مواجهة سفن النورمان فى عرض

البحر قبل الهجوم المفاجئ على أرض الأندلس وإفساد إغاراتهم المخربة .

وعاش المسلمون بعد ذلك سواء فى الغرب أو الشرق عيشة كريمة ، يهابهم جيرانهم من قوى أوربا بسبب نشاط الدبلوماسية الإسلامية ، وما حفلت به من طبقة ممتازة من السفراء العظام ، الذين يقفون على قدم المساواة مع كبار رجال السلك السياسى من أهل البلاد الحديثة ، التى تتبوأ مركز الصدارة فى ميـــدان الدبلوماسية فى الوقت الحاضر .

الفهرس

صفحة

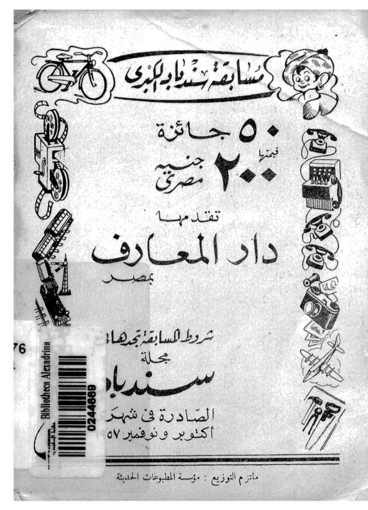
صفحة

دار المعارف بمصر

تغتنم فرصة افتتاح المدارس لتقدم أصدق التهنئات بالعام المدرسى الجديد إلى رجال التربية والتعليم وآباء الطلبة وأولياء أمورهم سائلة الله أن يكون هذا العام عاماً مباركاً يجنى فيه طلاب العلم أينع الثمار ويعود بالخير والبركة على الوطن العزيز .

وتنتهز أيضاً هذه الفرصة السعيدة لتعلن للجمهور الكريم وحضرات نظار المدارس والمعلمين والطلبة أنها قد فرغت من طبع الكتب المدرسية المقررة وغير المقررة مما تلتزم طبعه للمراحل الابتدائية والإعدادية والثانوية ويمكن طلبها من :

ملتزم التوزيع : مؤسسة المطبوعات الحديثة


مسابقة سندباد الكبرى
٥٠ جائزة
قيمتها ٢٠٠ جنيه مصري
تقدمها
دار المعارف
بمصر
شروط المسابقة تجدها
مجلة
سندبا
الصادرة في شهر
أكتوبر و نوفمبر ٥٧
ملتزم التوزيع : مؤسسة المطبوعات الحديثة